حياة الأرواح

في ثمرات الإيمان
بأسماء الله الحسنى وصفاته العُلى

الطبعة الثانية
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع
الفرع الرئيسي: حولي - شارع المثني - مجمع البدري - ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦
فرع المصاحف : ت ٢٢٦١٥٠٤٦ - فرع الجهراء: الناصر مول: تلفون: ٩٥٥٥٨٦٠٨
فرع الفحيحيل: البرج الأخضر - شارع الدبوس - تلفون: ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧
فرع الرياض: المملكة العربية السعودية التراث الذهبي - جوال ٥٥٧٧٦٥١٣٨ ٠٠٩٦٦
الخط الساخن: جوال: ٩٤٤٠٥٥٥٩ ٠٠٩٦٥
z.zahby74@yahoo.com
imamzahby

حياة الأرواح

في ثمرات الإيمان
بأسماء الله الحسنى وصفاته العُلى

عدنان عبد القادر القادري

توطئة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[2].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾[3].

---

(١) آل عمران (١٠٢).

(٢) النساء (١).

(٣) الأحزاب (٧٠).

أما بعد

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن العبد لم يخلق إلا ليعبد الله وحده ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[1]، وإن حقيقة العبودية كمال الحب مع كمال الذل لله تعالى.

هل يتصور أن تحب ذاتاً لا تعرفها؟

كيف تحب من لا تعرف؟

فكيف تتحقق العبودية ممن لا يعرف محبوبه؟

قال ابن عباس رضي الله عنه[2]: «قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدل عليه بقلبه، فإذا عرفه ازداد نوراً على نور. وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدل عليه بدلائله، فعلم أن له ربّاً وخالقاً، فلما عرَّفه الله عز وجل بنفسه ازداد معرفة فقال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ

(١) الذاريات (٥٦).

(٢) القرطبي في تفسير ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ وصححه النحاس.

هَدَىٰنِۚ﴾[1]».

لذا «أصل الدين وأساس الهداية وأفضل ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول هو معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا[2] التي بها يعرف محبوبه الأعلى.

«والقرآن فيه من ذكر أسماء الله وصفاته وأفعاله أكثر مما فيه من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنة، والآيات المتضمنة لذكر أسماء الله وصفاته أعظم قدراً من آيات المعاد، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي المتضمنة لذلك كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال لأُبي بن كعب رضي الله عنه: «أتدري أي آية في كتاب الله أعظم؟» قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾[3]. فضرب بيده في صدره وقال: «ليهنِك العلم أبا المنذر»[4].

وأفضل سورة هي أم القرآن كما ثبت ذلك في حديث أبي سعيد بن المعلى في الصحيح قال له النبي ﷺ: «إنه لم ينزل في التوراة ولا في

(١) الأنعام (٨٠).

(٢) الحموية (١٩٦).

(٣) البقرة (٢٥٥).

(٤) رواه مسلم (٨١٠).

الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها»[١]، «وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٢]. وفيها من ذكر أسماء الله أعظم مما فيها من ذكر المعاد.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ من غير وجه أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن[٣]. وثبت في الصحيح أنه بشَّر الذي كان يقرأها ويقول إني لأحبها لأنها صفة الرحمن بأن الله يحبه[٤]، فبيَّن أن الله يحب من يحب ذكر صفاته سبحانه وتعالى»[٥].

فمعرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا هو غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية[٦].

وفي سورة الرحمن لما ذكر الله تعالى أصناف اللذات لأهل الجنة

(١) رواه أحمد (٢/٣٥٧، ٤١٣) (٥/١١٤) وصححه الترمذي (٢٨٧٥) من حديث أبي هريره. قاله النبي ﷺ لأبي بن كعب وليس من حديث أبي سعيد بن المعلى.
(٢) رواه البخاري (٤٦٤٧، ٤٧٠٣) من حديث أبي سعيد بن المعلى، وصححه الترمذي (٢٨٧٥) من حديث أبي هريرة.
(٣) رواه البخاري (٥٠١١).
(٤) رواه البخاري (٧٣٧٥).
(٥) درء التعارض (٥ / ٣١٠ - ٣١٢).
(٦) الحموية (١٩٩).

المحسنين منهم والمؤمنين من الحدائق والأشجار والزروع والأرض الخضراء الشاسعة والعيون وألوان الطعام والتلذذ بالحور العين قاصرات الطرف والمقصورات في الخيام كأنهن الياقوت والمرجان والفرش التي بطائنها من حرير ذكر ما هو أعظم منها نعيماً وأكمل لذةً وهو التعرف على الله تعالى ولو باسم واحد من أسمائه الحسنى. فما هذه الألوان من النعيم مع التلذذ بمعرفة اسم واحد من أسماء الله تعالى إلا كضوء الشمعة بالنسبة إلى الشمس الساطعة في رابعة النهار؛ لذا ختمت أصناف اللذات بقول الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾[1].

«فمشهد الأسماء والصفات من أجلِّ المشاهد، فكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال، وكل صفة لها مقتضى وفعل، إذ كل اسم له تعبد مختص به علماً ومعرفةً وحالاً، وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾[2][3].

(١) الرحمن (٧٨).
(٢) الأعراف (١٨٠).
(٣) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٤٩- ٤٥٢).

فمن في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم أو نهمة في العبادة يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده وأعظم مطالبه. وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر[1].

إن كمال عبودية العبد «من جهة العلم والمعرفة أن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول ﷺ لا مخالف له؛ فإن بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف، ويكون ذلك قائماً بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها. وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم، والسالكون على هذا الدرب أفراد العالم، طريق سهل قريب موصل، طريق آمن، أكثر السالكين في غفلة عنه.

فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وإيمانه حتى خرقها وجاوزها إلى مقتضى الوحي والفطرة والعقل فقد أوتي خيراً كثيراً؛ ولا يخاف عليه إلا من ضعفت همته، فإذا انضاف إلى ذلك الفتح همة عالية فذاك السابق حقاً، واحد الناس في زمانه، لا يلحق شأوه غباره. فشتان ما بين من يتلقى أحواله وارداته عن الأسماء والصفات وبين من

---

(١) الحموية (٢٠١).

يتلقاها عن الأوضاع الاصطلاحية والرسوم أو عن مجرد ذوقه ووجده إذا استحسن شيئًا قال: هذا هو الحق.

فالسير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب، وفتحه عجب، صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعب ولا مكدود ولا مشتت عن وطنه ولا مشرد عن سكنه ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[1].

وليس العجب من سائر في ليله ونهاره وهو في الثرى لم يبرح من مكانه، وإنما العجب من ساكن لا يرى عليه أثر السفر وقد قطع المراحل والمفاوز، فسائر قد ركبته نفسه فهو حاملها سائر بها ملبوك يعاقبها وتعاقبه، يجرها وتهرب منه، ويخطو بها خطوة إلى أمامه فتجذبه خطوتين إلى ورائه، فهو معها في جهد وهي معه كذلك. وسائر قد ركب نفسه وملك عنانها فهو يسوقها كيف شاء وأين شاء، لا تلتوي عليه ولا تنجذب ولا تهرب منه، بل هي معه كالأسير الضعيف في يد مالكه وآسره، وكالدابة الريضة منقادة في يد سائسها وراكبها، فهي منقادة معه حيث قادها، فإذا رام التقدم جمزت به وأسرعت، فإذا أرسلها سارت به وجرت في الحلبة إلى الغاية ولا يردها شيء، فتسير به وهو

(١) النمل (٨٨).

ساكن على ظهرها، ليس كالذي نزل عنها فهو يجرها بلجامها ويشحطها ولا تنشحط. فشتان ما بين المسافِرَيْن، فتأمل هذا المثل فإنه مطابق لحال السائِرَيْن المذكورين، والله يختص برحمته من يشاء[١].

لذا فمن أعظم المصائب أن يصاب الإنسان فيما لا سعادة له ولا نجاة له إلا به، ويصاب في الطريق الذي يقول إنه به يعرف ربه، ثم يرد عليه إشكال فيه لا ينحل له[٢].

فكيف بمن يسعى جاهداً في نفي صفات إلهه، فحقيقة أمر هذا أنه لا يعرف ربه بل لا يؤمن به. قال أبو معمر الهذلي: من زعم أن الله لا يتكلم ولا يبصر ولا يسمع ولا يعجب ولا يضحك ولا يغضب ولا يرضى -وذكر أشياء من هذه الصفات- فهو كافر بالله، إن رأيتموه على بئر واقفاً فألقوه فيها[٣].

وقال يزيد بن هارون: من كذَّب بأحاديث الصفات فهو بريء من الله، والله منه بريء[٤].

---

(١) طريق الهجرتين (٣٩٣-٣٩٥).

(٢) درء التعارض (٣/ ١٨٦- ١٨٧).

(٣) رواه عبدالله في السنة (٥٣٥)، راجع الإبطال لأبي يعلى (٣٦).

(٤) الإبطال للقاضي أبي يعلى (٣١).

وقال حماد بن زيد: مثل الجهمية مثل رجل قيل له: في دارك نخلة؟ قال: نعم.

قيل: فلها خوص؟ قال: لا.

قيل: فلها سعف؟ قال: لا.

قيل: فلها كرب؟ قال: لا.

قيل: فلها أصل؟ قال: لا.

قيل له: فلا نخلة في دارك.

هؤلاء الجهمية قيل لهم: لكم رب يتكلم؟ قالوا: لا.

قيل: فله يد؟ قالوا: لا.

قيل: فله قدم؟ قالوا: لا.

قيل: له أصبع؟ قالوا: لا.

قيل: فيرضى ويغضب؟ قالوا: لا.

قيل: فلا رب لكم[1].

(١) الإبطال للقاضي أبي يعلى (٣٨).

فمن لم يثبت الصفات فقد أنكر وجود الإله؛ قال أيوب السختياني عند ذكر المعتزلة: «إنما مدار القوم على أن يقولوا: ليس في السماء شيء»[1].

قال أبو نعيم البلخي: كان رجل من مرو صديقاً لجهم ثم قطعه وجفاه، فقيل له: لم جفوته؟ قال: جاء منه ما لا يحتمل، قرأ سورة طه فلما قرأ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[2] قال: أما والله لو وجدت سبيلاً إلى حكها لحككتها من المصحف[3].

لذا عظَّم السلف مسألة إثبات ما أثبته الله لنفسه من الصفات، وتحملوا في سبيلها ألوان الأذى والعذاب وصنوف المصائب والمحن كالإمام أحمد وغيره من علماء السلف رحمهم الله، وملأوا مصنفاتهم بذكرها لما لها من الأهمية العظمى، بل وكثير منهم أفرد لها مصنفاً خاصاً لما لهذا الأصل من فوائد عظيمة جمة. من أجل ذلك أحببت أن أجمع بعض الفوائد المجملة المتحصلة من جرَّاء إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العليا التي وردت في الكتاب والسنة. فمن جملة الفوائد:

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٤).
(٢) طه (٥).
(٣) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (٣٨).

١- محبة الله تعالى.

٢- اللذة والنعيم القلبي.

٣- بلوغ الكمال البشري.

٤- الهيبة والوجل والتعظيم لله تعالى.

٥- الاطمئنان والثقة بالله تعالى.

٦- الزهد في الدنيا وفي النفس.

٧- الرجاء وعلو الهمة.

٨- حسن الخاتمة.

الأثر الأول: يورث محبة الله تعالى

لا يحب المحب محبوبه إلا بعد أن يعرف صفاته أو بعضها، فمعرفة صفات الله تعالى أو بعضها يورث محبته تعالى.

فمحبة الله تعالى غاية الخلق، ومنتهى آمالهم، وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمَّر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروَّح العابدون. فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون. وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام. وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.

تحمل أرواح السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا أبداً واصليها، وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها. وهي مطايا القوم التي

مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب[1]. فكيف السبيل إلى بلوغ تلك المرتبة العليا؟

الأسباب الموجبة لمحبة الله تعالى ثلاثة:

- الجمال الإلهي.
- الكرم الإلهي.
- كمال الصفات الإلهية.

وجميع هذه الأسباب لا يتوصل إليها إلا بتلمّس ومعرفة أسماء الله وصفاته.

(١) المدارج (٣ / ٦- ٧).

١- الجمال الإلهي

أراد أحدهم البحث عن زوجة فسئل: ما هي شروطك؟ سرد كل صفات الجمال في المرأة: طويلة، بيضاء، حوراء العين، خصرها...، شعرها طويل، لونه قرنبي. ثم ختم شروطه خشية الإنكار عليه بقوله: «وذات دين». ولم يفصّل في التدين كما فصّل في الجمال.

القلب متعلق بالجمال في كل شيء حتى في الطعام والمكان. فإذا عزم أحدهم على السفر سياحة سأل عن جمال المكان والطبيعة، لذا يسأل عن الجبال والأرض الخضراء والزهور والأشجار والبحيرات والأنهار والأمطار. وإذا بنى بيتاً جعل أكثر من ثلاثة أرباع المال المخصص للبيت لتجميله في الداخل والخارج، وإذا صنع له طعام طلب تزيينه وإلا لم يشته تناوله. النفوس فطرت على حب الجمال، الرجال والنساء في ذلك سواء.

إذا قرأت قصة يوسف عليه السلام وكيف تعلقت به امرأة العزيز وهي زوج رئيس الوزراء، وكانت جميلة وذات منصب ومال وربما هي أشهر امرأة في مصر بعد امرأة الملك، لقد تعلقت تلك المرأة بيوسف عليه السلام لروعة جماله وهو مملوك عندها، بل قال النبي ﷺ فيه واصفاً

جماله: «أُعطي شطر الحُسْن»[1] لقد خص يوسف عليه السلام على الناس من حيث الجمال بشطر الحسن، واشترك الناس كلهم في شطره. لذا راودته امرأة العزيز بشتى طرق الإغراء ليتجاوب معها لكنه استعصم، إلى أن افتضح أمرها بين نسوة الأشراف في البلد، فدعتهن وقدمت إليهن الطعام، ثم دعت يوسف عليه السلام وطلبت منه الاغتسال فاغتسل فظهر جماله ونوره، فألبسته أفضل أنواع الثياب فازداد جماله، ثم سرحت شعره بأفضل أنواع التسريحات فازداد جمالاً على جمال، ثم طيبته بأفضل أنواع الطيب فكمل الجمال البشري. وبينما كل امرأة منهن قد أخذت السكين لتتناول الطعام إذ بامرأة العزيز قد أتت بيوسف عليه السلام من وراء الستر ثم قالت له: «اخرج عليهن»! فدخل عليهن بجماله الذي تفتحت له أفئدة النسوة، فانبهرن بجماله وقلن بصوت واحد: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[2] ولسان الحال يقول قول العامة: «لام الله من لامك». حينئذ كلهن تحمسن لدعوته إلى الفاحشة والاستجابة إلى طلب امرأة العزيز. لذا تجدك تود رؤية يوسف عليه السلام ولو في المنام، على أقل الأحوال تود رؤية جمال عينيه.

لو جمعت جمال كل النساء الحسناوات والجميلات في الدنيا،

(١) رواه مسلم (١٦٢).

(٢) يوسف (٣١).

وجمال كل الرجال، وجمال الطبيعة وجمال الكون، جمعت كل هذا الجمال في مخلوق واحد ما ضاهى جمال الله تعالى؛ قال النبي ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»[1].

نظرة واحدة إلى جمال الله تعالى لا يعادلها شيء، ولو بذلت مهجتك وروحك وجميع أموالك بل وكل أموال أهل الأرض. تجد هذا الجمال في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]. فالله تعالى «نور». «نور السموات والأرض» هذا النور الذي ملأ السموات والأرض هو نور مخلوق، وهو أثر مخلوق من آثار نور الخالق، فكيف بنور وجهه وجماله الذاتي؟! «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[3].

فوجهه ملئ جمالاً وكبرياءً وعظمةً وجلالاً ونوراً ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[4]. من رآه رأى حقيقة الجمال، وعلم حينئذ أنه لم يعرف الجمال قبل هذه الساعة، وتهاوى كل جمال دونه وكل جلال سواه، فيخر حينئذ ساجداً لكمال الجمال والجلال.

(١) رواه مسلم (٩١).
(٢) النور (٣٥).
(٣) رواه مسلم (١٧٩).
(٤) الرحمن (٢٧).

بينما الناس والخلائق في ظلمات العرصات وأهوال أرض المحشر وفي حلكة الظلام إذا بالأرض تشرق بأقطارها، يلتفت الخلق فإذا هم بنور الجمال الإلهي؛ بمجيء الله تعالى ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[1]. إن لجلاله عينان جميلتان تأخذان بالقلوب ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[2].

أليس جماله أهلاً لأن تتعلق به القلوب وتتفطر له الأفئدة حباً وشوقاً وتُبذل له المهج؟! لذا قال النبي ﷺ في مناجاته لله تعالى: «أسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك»[3].

فهذا الطريق الأول الذي يقودك إلى محبة الله تعالى أن تتعرف على جمال الله تعالى. فكل جميل تراه في دنياك ويأخذ بقلبك فاعلم بأن الله تعالى أعظم جمالاً وجلالاً؛ فاسرح في حدائقه وأزهاره، وتذوق من حلاوة ثماره، وانهل من عذوبة أنهاره.

---

(١) الزمر(٦٩)

(٢) الطور (٤٨).

(٣) رواه أحمد (٢٦٤/٤) والنسائي (١٢٢٩) وصححه ابن حبان (١٩٧١/٥) والحاكم (٥٢٤/١ - ٥٢٥) والألباني.

٢- الكرم الإلهي

«هذا الباب يدخل منه كل أحد إلى محبته سبحانه، فإن نعمته على عباده مشهودة لهم، يتقلبون فيها على عدد الأنفاس واللحظات. وقد ورد في الأثر: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني بحب الله»[١].

فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن والإحسان، ورؤية النعم والآلاء، وكلما سافر القلب فيها ازدادت محبته وتأكدت، ولا نهاية لها، فيقف سفر القلب عندها. بل كلما ازداد فيها نظراً ازداد فيها اعتباراً وعجزاً عن ضبط القليل منها، فيستدل بما عرفه على ما لم يعرفه. والله سبحانه دعا عباده إليه من هذا الباب، حتى إذا دخلوا منه دُعوا من الباب الآخر وهو باب الأسماء والصفات الذي إنما يدخل منه إليه خواص عباده وأوليائه، وهو باب المحبين حقاً الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحدٌ منهم، بل كلما بدا له منه علم ازداد شوقاً ومحبةً وظمأً.

فإذا انضم داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم

(١) رواه الترمذي (٣٧٨٩) وقال: حسن غريب؛ إنما نعرفه من هذا الوجه. وضعفه الألباني، وفيه عبدالله بن سليمان النوفلي. قال الذهبي: فيه جهالة، لا يعرف.

يتخلف عن محبة مَنْ هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدها نقصاً وأبعدها من كل خير، فإنَّ الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه.

وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً منه سبحانه، ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه سبحانه، وهو الذي لا يحد كماله، ولا يوصف جلاله وجماله، ولا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه.

وإذا كان الكمال محبوباً لذاته ونفسه وجب أن يكون الله سبحانه هو المحبوب لذاته وصفاته إذ لا شيء أكمل منه، وكل اسم من أسمائه وصفة من صفاته تستدعي محبة خاصة، فإن أسماءه كلها حسنى، وهي مستمدة من صفاته، وأفعاله دالة عليها. فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل وعلى كل ما أمر، إذ ليس في أفعاله عبث ولا في أوامره سفه، بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة، وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه، وأوامره كلها مصلحة تستوجب الحمد والمحبة عليها، وكلامه كله صدق وعدل، وجزاؤه كله فضل وعدل، فإنه إن أعطى فبفضله ورحمته ونعمته،

وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته(١).

﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(٢) قالها نبي الله سليمان عليه السلام وصدق عليه السلام، فقد أسبغ الله تعالى علينا نعمه ظاهرة وباطنة ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾(٣). كل عضو فيك سلِ الأطباء عنه: كم قيمته؟ كم ثمنه؟ العين، الأذن، الكبد، الكلى، القلب، الدماغ، الدورة الدموية، الأمعاء، القولون، الرئة. ثم كم قيمة العلاج لو تعطل شيء منها؟ الأعصاب، البصر، السمع، عمل الجهاز الهضمي، عمل القلب، العمليات الجراحية... إلخ. لقد منحك الله تعالى إياها بلا مقابل.

دخل ابن السمَّاك على هارون الرشيد، فطلب الرشيد ماءً فأُتي بماءٍ بارد.

قال ابن السمَّاك: يا أمير المؤمنين! بكم كنت مشترياً هذه الشربة لو منعتها؟

الرشيد: بنصف ملكي.

فلما شرب قال ابن السمَّاك: اشرب هنيئاً. أرأيت لو منعت خروجها من بدنك، كم كنت تشتري ذلك؟

(١) طريق الهجرتين لابن القيم (٥٧٣- ٥٧٤).

(٢) النمل (٤٠).

(٣) النحل (٥٣).

الرشيد: بنصف ملكي الآخر.
ابن السمَّاك: إن مُلكاً قيمة نصفه شربة ماء، وقيمة نصفه الآخر بولة، لخليق أن لا يتنافس فيه.

كل هذه النعم منحك الله تعالى إياها بلا مقابل؛ ألا يستحق الحب؟! النفس تحب من يحسن إليها. وهل مِن إحسانٍ بعد هذا الإحسان؟ ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾[1].

(١) لقمان (٢٠).

٣- كمال الصفات وكمال الأفعال الإلهية

من موجبات محبة العبد لربه التعرف على كمال صفاته العليا وكمال أفعاله. فإذا علمت أن الله تعالى يغفر الزلات، ويعفو عن السيئات، ويقيل العثرات، ويحلم عن جهالات العبد، وهو أرحم بعباده من الأم المرضع برضيعها وولدها عند فقده ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[(١)] ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾[(٢)].

يتجاوز عن العظائم، ويكرم عباده العاصين، ويتفضل على المحسنين مع كمال قدرته وسرعة عقوبته ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٣)] ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾[(٤)]. لا يغفر عن ضعف وخور، وإنما عن كمال العزة وتمام الحكمة ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(٥)]. «ليس له ثأر عند عبده فيدركه بعقوبته، ولا يتشفى بعقابه، لا يزيد ذلك في ملكه مثقال ذرة، ولا ينقص مغفرته»[(٦)].

(١) الأعراف (١٥٦).
(٢) غافر (٧).
(٣) الأعراف (١٦٧).
(٤) غافر (٣).
(٥) المائدة (١١٨).
(٦) المدارج (٢/ ٤٥).

ولو غفر لأهل الأرض كلهم لما نقص مثقال ذرة من ملكه. ورد عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .

يا عبادي! كلكم ضالٌ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم .

يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم .

يا عبادي! كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم .

يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم .

يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ

واحدٍ فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر .

يا عبادي! إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1] .

يفرح بتوبة عبده ليجود له بالكرم والتفضل والإنعام لكمال كرمه وجوده ورحمته، «لله أشد فرحاً بتوبة العبد» لا لاحتياجه لعبده فهو الغني عن عباده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[2] ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾[3]. إنما يفرح بتوبة عبده ليمنع عنه عقوبته وعذابه، فالرحمة والكرم أحب إليه من غضبه وعقابه: «إن رحمتي غلبت غضبي»[4].

«إن اسم الجميل والبر واللطيف والودود والحليم والرحيم يحصل بها التعلق بالله تعالى، ثم الأنس به، ثم يقوى التعلق إلى أن يستغرق

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) فاطر (١٥).

(٣) الإسراء (١١١).

(٤) رواه البخاري (٣١٩٤).

العقل، فيقهر العقل بصولته[1]. فيورث في قلبه الشعور بالكمال الإلهي مما يوجب كمال الحمد لله تعالى، ومن ثم دوام اللهج بذكره، فيصون العبد لسانه إلا من ذكر الله تعالى.

فيأنس بذكره عند كل أمر جميل وعند كل لذةٍ وعند كل متعة: عند دخول المنزل لا يذكر إلا اسم الله: **بسم الله**، وعند الطعام لا يذكر إلا اسمه **بسم الله**، وعند الانتهاء من الطعام لا يذكر سواه **الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه**، وعند الوقاع لا يذكر إلا اسمه **اللهم جنبنا الشيطان**، وإذا أخلد إلى النوم والراحة **باسمك اللهم وضعت جنبي؛ اللهم أسلمت نفسي إليك**، وعند الاستيقاظ لا يذكر إلا اسمه **الحمد لله الذي أحياني**، وعند الخروج من المنزل لا يذكر إلا اسمه **بسم الله توكلت على الله**، وعند ركوب الدابة **بسم الله؛ الحمد لله**، وعند دخول المسجد **اللهم افتح لي أبواب رحمتك**، وعند رؤيته الأصحاب والخلان أول ما يذكر اسم الله **السلام عليكم**، وعندما يرى أمراً يهوله أو يزعجه قال: **سبحان الله سبحان الله** كما في رؤيا النبي ﷺ لعذاب القبر في المنام.

وعند وقوع أمر يهمه: **إنا لله وإنا إليه راجعون**، وعند الجرح: **بسم الله**، وفي أمر يغضبه: **أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**، ومستجيراً

(١) المدارج (٢ / ٤٣٦).

به قبل دخول الخلاء يذكر اسمه، وعند إغلاق الباب يذكر اسمه، وفي وكاء السقاء يذكر اسمه، ويصون لسانه من العقد إلا باسمه؛ فعند عقد الأيمان لا يعقد إلا باسمه، ولا يحلف إلا باسمه، ولا يذبح إلا باسمه، ولا يستعين إلا باسمه، ولا ينذر إلا له لكمال محبته له ولكمال التوحيد.

حينئذٍ يفهم العبد معاني النصوص الشرعية ويستشعرها، فيدرك لماذا يصان من الأضرار عند الصباح والمساء إذا قال: «**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء**»، وسبب الشفاء إذا قال عند المرض: «**بسم الله أرقيك**».

وفي أحلك المواطن يذكر الله تعالى. فإذا كان العشاق يذكرون معشوقاتهم عند القتال والنزال كما قال عنترة:

ولقد ذكـرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغركِ المتبسم

فإن المؤمن يتلهف قلبه بذكر اسم الله تعالى فيه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾[1].

(١) الأنفال (٤٥).

وإذا كان المحبون يذكرون محبوباتهم عند الفزع كما قال الآخر:

ولقد ذكرتك في السفينة والـرّدى　　متـوقـع بتـلاطـم الأمـواج
والجو يهطل والرياح عواصف　　والليل مُسودٌّ الذوائب داجي
وعلـى السواحل للأعادي غارة　　يتوقعـون لغـارة وهيـاج
وعَلَتْ لأصحاب السفينة ضجة　　وأنا وذكراك في ألذ تناجي

قال سهل بن سعد: ساعتان يفتح لهما أبواب السماء وقلَّ داعٍ ترد عليه دعوته: حضرة النداءِ للصلاة والصف في سبيل الله[1].

فالتعرف على الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا يورث محبة الله تعالى.

* * *

(١) رواه مالك في الموطأ (٧٠/١) موقوفاً بسند صحيح، بينما رواه غيره مرفوعاً وفيه ضعف؛ فرفعه منكر.

الأثر الثاني: اللذة والنعيم القلبي

إذا آمن العبد بالصفات الإلهية كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة على صفائها فإنه يشعر بالسعادة وبشاشة القلب وانشراح الصدر، وينعم باللذة القلبية كلما سمع صفة من هذه الصفات.

لا يكاد يسمع آية إلا وفيها صفة من صفات الله تعالى، فإذا ما سمعها ذكّرته بمن يحب، ونقلته إلى الملأ الأعلى ليلتصق بالعرش فيحف بجناحيه من حوله، معظماً الله تعالى متودداً إليه متملقاً بين يديه، فيسري إلى قلبه من النعيم الإلهي والبشاشة وانشراح الصدر ومن اللذة ما «يلين له قلبه ومفاصله، حتى كأنما شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة عياناً»[1].

فمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا هي الباب الذي يلج منه على بستان النعيم القلبي «فلا حياة للقلوب ولا نعيم ولا لذة ولا

---

(١) الروح (٤٩٧).

سرور... إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها سبحانه وصفاته وأفعاله، ويكون أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها في ما يقربها إليه ويدنيها من مرضاته[١].

فمن فتح له هذا الباب فرح فرحاً لا يدانيه فرح أهل الدنيا بديناهم «فالفرح بالله تعالى وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه، وله عبودية عجيبة وأثر في القلب لا يعبر عنه، فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطاه، بل هو جل عطاياه، والفرح في الآخرة بالله تعالى ولقائه بحسب الفرح به وبمحبته في الدنيا[٢].

إن التعرف على الله تعالى من خلال أسمائه وصفاته هو حبل الوصال، وهو الذي يحبب إليه لقاء الله تعالى فيحب الله لقاءه؛ قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»[٣]. وهو الذي يسليه في الدنيا ويحدوه في دلجته ويغذي روحه ويسقي فؤاده لينطلق في مضمار السباق إلى مرضاته ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا

(١) الصواعق المرسلة (١ / ١٥٠).
(٢) الروح (٥٥٢- ٥٥٣).
(٣) رواه البخاري (٦٥٠٧).

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1]. لذا كان النبي ﷺ يجد السعادة بقراءة القرآن حال قيامه بين يدي الله تعالى لمعايشته للآيات والصفات الإلهية والوصال مع الله تعالى فكان يقول لبلال رضي الله عنه: «أرحنا بالصلاة»[2]. فإذا كبَّر للصلاة وقرأ القرآن ابتهج قلبه لما يسري في قلبه من النعيم لشهود قلبه الصفات الإلهية، فيطيل أحياناً فيقرأ «البقرة والنساء وآل عمران في ركعة واحدة»[3] لا يفصل بينها بسجود ولا ركوع إذ لا تكاد تخلو آية من اسمٍ أو صفةٍ لله جل في علاه تصريحاً أو تلويحاً أو تلميحاً، وعادة ما تختتم آي القرآن باسم أو صفة لله تعالى تناسب ما جاء في الآية من أمر أو نهي أو خبر. فكما أن معنى الآية يوضح معنى ما ختمت به من اسمٍ أو صفةٍ لله جل جلاله فإن العكس صحيح.

فإذا تشققت أيدي النسوة دون أن يشعرن لما عايشن من لذة الجمال في يوسف عليه السلام، فإن لذة معايشة الصفات الإلهية لا تضاهى ولا تقارن حال قيامك بين يدي الله تعالى في الصلاة حين ينصب وجهه الكريم تجاه وجهك. لقد كان النبي ﷺ يقيم الليل حتى تتفطر وتتشقق قدماه وهو لا يشعر بها قائلاً: «أفلا أحب أن أكون

(١) الكهف (١١٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٨٦) وصححه الألباني.

(٣) رواه مسلم (٧٧٢).

عبداً شكوراً»[١].

فإذا ما قرأ آية من آيات الصفات فإن القلب يشعر بالهيبة لله تعالى ثم ينشرح صدره بالسعادة ويتبشبش قلبه لها فَيَلْتَذّ كُلّ عضو فيه ثم يرتخي ويلين ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[٢].

قال بعضهم: «من عرف الله تعالى صفا له العيش، وطابت له الحياة وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله». وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من ذاق طعم المعرفة وجد طعم المحبة».

لذا لما جاء حبر من أحبار اليهود[٣] فقال للنبي ﷺ: «إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك» ضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[٤]. لقد

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧).

(٢) الزمر (٢٣).

(٣) رواه البخاري (٤٨١١).

(٤) الزمر (٦٧).

ضحك النبي ﷺ فرحاً لما ذكره بهذه الصفة.

ومن أمثلة معايشة النبي ﷺ لآيات الصفات ما رواه عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾(١) ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر؛ يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم» فرجف برسول الله ﷺ المنبر(٢). ولمسلم: «حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ»(٣)، «حتى قلنا ليخرّن به»(٤). فلم يشعر النبي ﷺ بحركة المنبر لاستغراقه في مشاهدة هذه الصفة في هذا الحدث العظيم.

قال يحيى بن معاذ: «يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين: بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه».

بينما الذي ينفي هذه الصفات من محبةٍ وإتيانٍ ومجيءٍ وعلوٍ ويدٍ

(١) الزمر (٦٧).
(٢) رواه أحمد (٧٢/٢)، ومسلم (٢٧٨٨) ونحوه.
(٣) رواه مسلم (٢٧٨٨).
(٤) رواه أحمد (٧٢/٢).

ووجهٍ فإنه ينقبض قلبه كلما سمع آية أو قرأها وقد تضمنت صفة منها، ويود لو أنه يحكها من المصحف كما قال أحدهم. بل يشعر حين يقرأ القرآن أنه يقرأ ما ظاهره كفر محض كما زعم أحدهم لما تضمن من الصفات الإلهية، إذ لا تكاد تخلو آية من صفة لله تعالى.

* * *

الأثر الثالث: بلوغ الكمال البشري

الله تعالى متصف بالكمال، وكل صفة له هي كمال مما يستدعي تطلع العبد لبلوغ الكمال، ثم تَطَبـُّع العبد واتصافه بها سجيةً ومحبةً، والمرابطة بها تقرباً واحتساباً.

١- تَطَلُّع العبد لبلوغ الكمال باتصافه بها

إذا تعرف العبد على صفات الكمال لله تعالى حينئذٍ يتحفز للاتصاف بالصفات العلية والمناقب السنية لأنه يعلم أنها ترتقي به وتُبَلِّغُهُ درجة الكمال البشري. فيسعى للاتصاف بالحلم والعفو والمغفرة لزلات الخلق، والرحمة والحياء والجود والكرم والجمال ليقترب من الكمال البشري، فتكتمل أخلاقه وتحسن طبائعه قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[(١)] وقال ﷺ: «ألا أخبركم بأحبِّكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؟ أحسنكم خلقاً»[(٢)].

«فكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبة ما أحبه وبذل الجهد في

(١) رواه البخاري في الأدب (٢٧٣) وصححه الألباني (الصحيحة ٤٥).

(٢) رواه أحمد (١٨٥/٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه وبذل الجهد في تركه[١]، ولا يتحقق هذا إلا بكمال علمه ومعرفته بصفات الله سبحانه «وأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال وله شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول ﷺ[٢] حينئذ يتطلع العبد ويعزم على أن يتصف بصفات الكمال.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قسم رسول الله ﷺ قسماً فقلت: والله يا رسول الله! لغير هؤلاء كان أحق به منهم. قال ﷺ: «إنهم خيّروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخّلوني، فلست بباخل»[٣] فلم يرض ﷺ أن يكون بما دون الكمال البشري.

ولما أرسل الملك رسوله لإخراج يوسف عليه السلام من السجن مع بقاء التهمة في حقه لم يرض بالخروج من السجن حتى تظهر براءته وكمال عفته فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[٤].

ولما أصبح عزيز مصر ودخل عليه إخوته دون علمهم به يرجون أن

(١) طريق الهجرتين (٣٩٣ - ٣٩٤).

(٢) طريق الهجرتين (٣٩٣ - ٣٩٤).

(٣) رواه مسلم (١٠٥٦).

(٤) يوسف (٥٠).

يمنَّ عليهم بتسريح أخيهم الذي استرق وتبين لهم أنه يوسف عليه السلام فاعترفوا بخطئهم في حقه أجابهم متطلعاً لبلوغ الكمال ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾(١) ثم أخبرهم أنه سيكثر لهم من الاستغفار حتى لا تغيب الشمس إلا وقد غفر الله لهم فقال ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(٢).

وكذا نبينا ﷺ تطلع لبلوغ هذه المرتبة لما فتح مكة وأعزه الله تعالى على من آذاه وعذَّبه وأخرجه من مكة وطارده بُغية قتله وجمع الجموع وجهَّز الجيوش للقضاء عليه فقال ﷺ لهم وهم بين يديه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(٣).

ولما أدخل الإمام أحمد رحمه الله على المعتصم ليكرهه على القول بخلق القرآن وعذَّبه قال عنه الإمام أحمد: هو في حل من ضربي. ولما قيل له: ادع على ظالمك قال: ليس بصابر من دعا على ظالمه؛ يرجو بلوغ الكمال.

ولما أتت جماعة بجامع مصر قد تعصبوا على تقي الدين ابن تيمية وتفردوا به وضربوه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. فسمع بذلك أتباع

(١) يوسف (٩٢).

(٢) يوسف (٩٢).

(٣) رواه النسائي في تفسيره (٣١٨) والبيهقي (١١٨/٩) وفي دلائله (٥/٥٧-٥٨) وابن السني (٣١٩) بسند صحيح.

الشيخ فاجتمعوا عنده رجالاً وفرساناً وتتابع الناس، وقال له بعضهم: يا سيدي، قد جاء خلق من الحسينية، ولو أمرتهم أن يهدموا مصر كلها لفعلوا.

فقال لهم الشيخ: لأي شيء؟

قالوا: لأجلك.

قال لهم: هذا ما يحق!

فقالوا: نحن نذهب إلى بيوت هؤلاء الذين آذوك فنقتلهم ونخرب دورهم فإنهم شوشوا على الخلق وأثاروا هذه الفتنة على الناس.

فقال لهم: هذا ما يحل!

قالوا: فهذا الذي فعلوه معك يحل؟! هذا شيء لا نصبر عليه، ولا بد أن نروح إليهم ونقاتلهم على ما فعلوا. والشيخ ينهاهم ويزجرهم.

فلما أكثروا في القول قال لهم: إما أن يكون الحق لي أو لكم أو لله. فإن كان الحق لي فهم في حل منه، وإن كان الحق لكم فإن لم تسمعوا مني ولم تستفتوني فافعلوا ما شئتم، وإن كان الحق لله فالله يأخذ حقه إن شاء كما يشاء.

قالوا: فهذا الذي فعلوه معك هو حلال لهم؟

قال: هذا الذي فعلوه قد يكونون مثابين عليه مأجورين فيه.

قالوا: فتكون أنت على الباطل وهم على الحق؟ فإذا كنت تقول: إنهم مأجورون فاسمع منهم ووافقهم على قولهم.

فقال لهم: ما الأمر كما تزعمون. فإنهم قد يكونون مجتهدين مخطئين ففعلوا ذلك باجتهادهم، والمجتهد المخطئ له أجر[1].

(١) العقود الدرية (٢٨٦ - ٢٨٧).

٢- يتطبع العبد بها سجية

إن المحبة توجب المشاكلة في الصفات، ويتقمص المحب من المحبوب أفعاله وصفاته، إذ المحبة تقهر القلب على التلبس بها. هذا أنس بن مالك ﷺ يحب الدُباء لأنه رأى النبي ﷺ يحب الدُباء[١]، وكان ابن عمر يقضي حاجته في الموضع الذي قضى النبي ﷺ فيه حاجته[٢]. لم يقصد هؤلاء الصحابة التقرب إلى الله تعالى بهذه الأفعال، ولكنهم من شدة حبهم للنبي ﷺ أصبحت هذه الأفعال سجية لهم.

لذا كان النبي ﷺ خلقه القرآن الذي لا تكاد تخلو آية فيه من صفة من صفات الله تعالى العلية. فقد وُصِف النبي ﷺ أنه «يعطي عطاء من لا يخشى الفقر»[٣]، ووصفه عمير بن وهب بأنه «أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس»[٤] فتخلق النبي ﷺ بها سجية من شدة حبه لله تعالى المتصف بالصفات المذكورة من كرمٍ وبرٍ ورحمةٍ.

قال أنس ﷺ: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة نظرت إلى

(١) انظر البخاري (٢٠٩٢).

(٢) رواه أحمد (١٣١/٢).

(٣) رواه مسلم (٢٣١٢).

(٤) رواه ابن إسحاق بسند حسن. البداية والنهاية (٥٨٤/٣).

صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك فأمر له بعطاء»[١] لقد علا كَعْبُه ﷺ في الحلم التي هي صفة من صفات الله العليا.

قال ابن القيم: «جئت يوماً إلى شيخ الإسلام ابن تيمية مبشراً له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له فنهرني وتنكر لي واسترجع. ثم قام من فوره إلى بيت أهل الميت فعزَّاهم. وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا ساعدتكم فيه. فدخلهم السرور ودعوا للشيخ، وعظَّموا هذه الحال منه»[٢].

(١) رواه مسلم (١٠٥٧).

(٢) المدارج (٢ / ٣٤٥).

٣- صفاته العلية هي المواطن التي يحب أن يرى عبده متقلباً في ربوعها وأزهارها

فالله تعالى يحب رؤية العبد متصفاً بصفات الكمال، فهو جميل يحب الجمال، ستير يحب الستر، عفو يحب العفو، رحيم يحب الرحماء، رفيق يحب الرفق، طيب لا يقبل إلا الطيب، لطيف يحب اللطف، حليم يحب الحلم ويجازيه عليها. فمن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن فرَّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرَّج الله عنه كربة من كرب الآخرة، ومن يسَّر على معسرٍ يسَّر الله عليه، فالجزاء من جنس العمل.

ففي رمضان حيث يجود الله تعالى على خلقه بالعتق كل ليلة ''كان النبي ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة»[١].

وعندما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح رضي الله عنه خاطبه الله تعالى وقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[٢] فقال أبو بكر رضي الله عنه: «بلى والله، إني

(١) رواه البخاري (١٩٠٢، ٣٥٥٤).

(٢) النور (٢٢).

لأحب أن يغفر الله لي»[1]، فرجع وأنفق على مسطح، فعفا عنه ليعفو الله عنه ويغفر له.

لما أمر الحجَّاج بقتل رجل، قال الرجل: أسألك بالذي أنت غداً بين يديه أذل موقفاً مني بين يديك إلا عفوت عني. فعفا عنه ليعفو الله عنه.

روى أحمد عن حذيفة رضي الله عنه قال: «إن رجلاً أتى به الله عز وجل فقال: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال الرجل: ما عملت من مثقال ذرة من خير أرجوك بها؛ قالها ثلاثاً. وقال في الثالثة: أي ربِّ! كنت أعطيتني فضلاً من مال في الدنيا، فكنت أبايع الناس، وكان من خُلُقي أتجاوز عنه، وكنت أُيسر على الموسر وأنظر المعسر. فقال الله عز وجل: نحن أولى بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي. فغفر له»[2]. فلما تجاوز عن الناس تجاوز الله عنه.

وزوَّر رجل على الفضل بن الربيع -أحد وزراء العباسيين- بأنه أعطاه ألف دينار، فذهب بالكتاب إلى وكيل الفضل بن الربيع لينقده المال، فإذا بالفضل يدخل عليهم، فقدم الوكيل الورقة المزورة إلى

(١) رواه البخاري (٤١٤١).

(٢) المسند (٤/١١٨). وروى البخاري نحوه (٢٠٧٧، ٢٠٧٨).

الفضل فقرأها الفضل ثم نظر إلى الرجل فكاد الرجل يموت من الخوف! فقال الفضل للوكيل: أسرع في إعطائه. فدخل الوكيل لينقد المال فقال الفضل للرجل: طب نفساً، وامض إلى سبيلك آمناً. قال الرجل: سترتني، سترك الله في الدنيا والآخرة!

فإذا تعرَّف العبد على صفات الكمال لله تعالى علم أن الله تعالى يحب أن يرى عبده متجملاً بها، حينئذ يسعى جاهداً لبلوغ الكمال البشري. فمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى توصل العبد إلى الكمال البشري من عدة نواحٍ: إذ تحفزه للاتصاف بالصفات العلية لعلوها وكمالها والنفوس تحب الكمال، ثم محبته لله تعالى توجب عليه المشاكلة في الصفات وتقمصها سجية، ثم محبة أن يراه المحبوب متقلباً في محابه فيجازيه عليها.

* * *

الأثر الرابع: الهيبة والوجل والتعظيم لله تعالى

الوجل: رجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته[1].

والإجلال: تعظيم مقرون بالحب[2].

والهيبة: خوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة[3].

إن التعرف على الله تعالى من خلال أسمائه وصفاته يورث الخوف من الله تعالى وتعظيمه والهيبة منه، ثم الخضوع له ودوام مراقبته، ثم الحياء منه وترك المساخط والمعاصي ومحاسبة النفس، ثم يعينه ذلك على فهم بعض النصوص.

---

(١) المدارج (١ / ٥١٣).
(٢) المدارج (١ / ٥١٣).
(٣) المدارج (١ / ٥١٣).

١- الخوف من الله تعالى

فإذا علم بأن الله تعالى له كمال القوة والقدرة، وأنه سريع العقاب، ولا يقف أمام عقوبته أحد، وأنه أهلك عاداً الأولى التي كانت الدولة الأولى في الأرض تتحكم في البلاد وذلت لها العباد، وأهلك ثمود فما أبقى، وأهلك قوم نوح عن بكرة أبيهم إلا من آمن، وقوم لوط رفعهم ثم قلبهم بمدائنهم وفضخهم في الأرض، وأباد الملوك الفراعنة في ساعة واحدة ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾[١] حينئذ يتملك العبد الخوف من الله تعالى ومن ثم تقواه. لذا جمع النبي ﷺ بين العلم بالله وتقواه فقال النبي ﷺ: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»[٢]، وقال ﷺ: «أنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية»[٣]، وقال أحمد بن عاصم: من كان بالله أعرف كان من الله أخوف؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٤].

(١) الشمس (١٥).

(٢) رواه البخاري (٢٠).

(٣) رواه مسلم (٢٣٥٦).

(٤) فاطر (٢٨).

٢- تعظيم الله تعالى

إذا علم العبد أن الله تعالى يسمع السر وأخفى، ويسمع كلام المتناجين الذي لا يسمعه القريب الملتصق بهم عظم الله تعالى وازداد له إجلالاً كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها[١]: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات؛ لقد جاءت المجادلة خولة بنت ثعلبة إلى النبي ﷺ وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وإني لأسمع كلام خولة ويخفى عليَّ بعضه فقالت: يا رسول الله! أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني؟! اللهم إني أشكو إليك. فما برحت حتى نزل جبرائيل بهذه الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾[٢].

يسمع أصوات الحجيج وأعدادهم تفوق مئات الآلاف؛ ذاك يجأر وآخر يستغيث وثالث يتضرع وهذا يسأل سؤله الخاص وذاك يسأل السؤال العام، وأحدهم بلغة وآخر بلغة أخرى؛ لكل منهم لغة ولكل منهم طلب خاص في آنٍ واحد، يسمعهم ويستجيب لهم! فتبارك الذي وسع سمعه الأصوات.

---

(١) رواه أحمد (٤٦/٦) وابن ماجه (١٨٨، ٢٠٦٣) واللفظ له والبخاري تعليقاً (٧٣٨٦) وصححه الحاكم (٤٨١/٢) ومقبل (١٥٢) في أسباب النزول.

(٢) المجادلة (١).

يقبض السموات السبع بيمينه والأرضين بيده الأخرى ثم يهزهن ويقول «أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[1] وما يستطيع أحد من ملوك الأرض أو عظمائِها أن يجيب.

وإذا علم العبد أن كرسيه وسع السموات والأرض، وما هو إلا موضع قدمي الله تعالى -كما قال ابن عباس[2]- حينئذ يزداد إجلالاً لله تعالى.

وأنه «الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

أحق من ذُكر، وأحق من عُبد، وأحق من حُمد، وأولى من شُكر، وأنصر من ابتُغى، وأرأف من مَلَكْ، وأجودُ من سُئل، وأوسع من أعطى، وأعفى من قَدر، وأكرم من قُصِد، وأعدل من انتقم.

حلمه عن علمه، وعفوه عن قدرته، ومغفرته عن عزته، ومنعه عن حكمته، وموالاته عن إحسانه ورحمته.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨٧، ٢٧٨٨).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في العرش (٦١) وصححه ابن خزيمة في التوحيد (١٥٤-١٥٦) والحاكم (٢/٢٨٢).

ما للعباد عليه حق أوجبوا كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا فبفضله وهو الكريم الواسع

هو الملك لا شريك له، والفرد لا نِدَّ له، والغني لا ظهير له، والصمد لا ولد له ولا صاحبة، والعلي لا مثيل له ولا سمي ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[(١)]، وكل مُلْكٍ زائل إلا ملكه، وكل ظل قالص إلا ظله، وكل فضل منقطع إلا فضله.

لن يُطاع إلا بإذنه ورحمته، ولن يُعصى إلا بعلمه وحكمته، يُطاع فيَشكر، ويُعصى فيتجاوز ويغفر، كل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل.

أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وسجَّل الآثار، وكتب الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾[(٢)] حينئذ تضمحل عندها كل عظمة[(٣)].

(١) القصص (٨٨).
(٢) يس (٨٢).
(٣) الوابل الصيب (٨٠-٨١).

٣- الهيبة

فإذا ما حصل خوف القلب من الله تعالى وخالطه تعظيم الله تعالى استوجب ذلك من القلب هيبة الله، «وأكثر ما تكون الهيبة أوقات المناجاة وهو وقت تملق العبد ربه وتضرعه بين يديه واستعطافه والثناء عليه بآلائه وأسمائه وأوصافه، أو مناجاته بكلامه. وهذه المناجاة توجب كشف الغطاء بين القلب وبين الرب ورفع الحجاب المانع من مكافحة القلب لأنوار أسمائه وصفاته وتجليها عليه، فتعارضه الهيبة في خلال هذه الأوقات، فيفيض من عنان مناجاته بحسب قوة واردها»(١).

من ذلك ما يحصل للأنبياء يوم القيامة، فعندما يجتمع الناس للبحث عن الخلاص من الموقف يوم القيامة في أرض المحشر يخلص منهم المؤمنون، فيتوجهون إلى آدم أبي البشر عليه السلام الذي خلقه الله بيديه وأسجد له ملائكته ونفخ فيه من روحه وعلَّمه أسماء كل شيء يطلبون منه الشفاعة عند الله ليأتي للفصل بين الناس، فيعتذر لهم ذاكراً ذنبه بالرغم من مغفرة الله له لشدة ما هجم على قلبه من هيبة الله تعالى قائلاً: «نفسي نفسي، إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قد عصيت ربي؛ قد أكلت من

(١) المدارج (١ / ٥١٦).

الشجرة» فيذهبون إلى نوح عليه السلام وهو أول رسل أهل الأرض، وسماه الله عبداً شكوراً، فيعتذر بذنبه المغفور له لشدة هيبته من الله تعالى قائلاً: «نفسي نفسي نفسي، إني سألت ربي ما ليس لي به علم»، فيذهبون إلى إبراهيم الخليل عليه السلام وحَسْبُهُ خلة الله تعالى له، فيذكر ما ليس بذنب في حساب العباد، ولكن للهيبة التي هجمت على قلبه: «إني كذبت ثلاث كذبات». فيذهبون إلى موسى عليه السلام الذي كلمه الله تكليماً وخط له التوراه بيده فيعتذر بخطأ غير مقصود كان قد اعترف به وتاب منه ولكن هيبة من الله تعالى قائلاً: «إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها». وعندما ينتهون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «أنا لها، أنا لها»، فيجمع الله في قلبه بين الهيبة والرجاء، فيخر ساجداً لله تعالى هيبة ويحمد الله تعالى رجاء رحمته ليفوز بالمقام المحمود: «يا محمد! ارفع رأسك، قل يسمع، سل تعط، واشفع تشفع»[1].

قال بعضهم: «من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة، فمن ازدادت معرفته بالله زادت هيبته». وقال إبراهيم بن الأشعث: «ما رأيت أحداً كان خوف الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به خوف وحزن شديد وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من يحضره ويشفق عليه، وكان يقول: رهبة

(١) انظر نص الحديث عند البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٩٤).

العبد من الله على قدر علمه بالله».

وهذا محارب بن دثار كان قاضيًا من قضاة الكوفة؛ يقول أحد جيرانه: كنا إذا أظلم الليل ونامت العيون نسمع محارب بن دثار وهو يدعو ويرجو ويهتف ويبكي في ظلمة الليل، وكان مما يقول:

«أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد،

أنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد،

أنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد،

أنا الصعلوك الذي مولته فلك الحمد،

أنا العزب الذي زوجته فلك الحمد،

أنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد،

أنا العاري الذي كسوته فلك الحمد،

أنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد،

أنا الغائب الذي أديته فلك الحمد،

أنا الراجل الذي حملته فلك الحمد،

أنا المريض الذي شفيته فلك الحمد،

أنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد،

أنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد،

فلك الحمد ربنا حمداً كثيراً على حمدٍ[1].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩٩)، والتهجد (٤٧)، والبيهقي في الشعب (٤٢٧٦).

٤- الخضوع

الهيبة من الله تعالى تورث خضوع القلب لجلال الله وعظمته وعزته وكبريائه؛ قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾[(١)]. فأعلم الناس به أشدهم له خشية، لذا قال النبي ﷺ: «إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية»[(٢)].

هذه الهيبة تورث انكسار القلب ومن ثم انكسار الجوارح وخضوعها؛ قال النبي ﷺ: «أطّت السماء وحُق لها أن تئط، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا وفيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده»[(٣)]. ولما عُرِجَ بالنبي ﷺ إلى سدرة المنتهى نظر دونه فإذا جبريل كالحلس البالي[(٤)]، أي كالثوب الملقى خاضعاً لجلاله من شدة هيبته لله تعالى.

لذا عندما ناجى الله تعالى نبيه وخليله محمداً ﷺ عند سدرة المنتهى

(١) فاطر (٢٩).

(٢) رواه البخاري (٦١٠١).

(٣) رواه ابن مردويه وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط عن جابر (٥٧ - مجمع البحرين) وفيه عمرو بن عثمان بن سيار ضعفه أبو حاتم والنسائي، ورواه البزار من طريق الحارث بن عبيد عن أبي عمران الجوني عن أنس (تفسير ابن كثير، سورة الإسراء) والحارث بن عبيد الأيادي فيه ضعف استشهد به البخاري متابعة فيصلح للاعتبار.

هجمت هيبة الله تعالى على قلب النبي ﷺ فخضع لجلاله فلم يلتفت يمنة ولا يسرة ولم يرفع بصره ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾[١].

(١) النجم (١٧).

٥- المراقبة

هيبة القلب وخضوعه لله تعالى مع مصاحبة استحضار اطلاع الله تعالى يورث الشعور بمراقبة الله له ثم انصداع القلب وجلاً وإجلالاً.

أخذ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يعس في الليل يتفقد أحوال الرعية، فسمع امرأة تقول لابنتها: يا بُنية، قومي فامذقي الماء باللبن (اخلطيه غِشاً). قالت: يا أماه.. إن أمير المؤمنين نهانا عن هذا!

الأم: وأين أمير المؤمنين الآن؟!

حينئذ استحضرت ابنتها مراقبة الله تعالى فقالت: إن لم يكن أمير المؤمنين يرانا فإن رب أمير المؤمنين يرانا.

فرجف عمر رجفة رآه مولاه أسلم، فجمع عمر أبناءه وقال: من يريد أن يتزوج خير نساء المدينة؟ فزوجها لابنه عاصم، فكان عمر بن عبدالعزيز ﷺ حفيدها.

وكان في وجه عمر ﷺ خطان أسودان من كثرة البكاء، وكان يسمع بكاؤه من آخر الصفوف، وكان إذا أظلم عليه الليل يضرب قدميه بالدرة ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم يا عمر؟! وكان ينعس

وهو قاعد، فقيل له: ألا تنام يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا نمت الليل ضيعت حظي مع الله، وإذا نمت النهار ضيعت رعيتي. وحين حضرته الوفاة قال لابنه: ضع خدي على التراب علّ الله أن يرى حالي فيرحمني. لقد كانت مراقبة الله تلازم أحواله.

بكى عمر الفاروق خوفاً وخشية وقد كان في الأرض الإمام المثاليا
وقال بصوت الحزن يا ليت أنني نجوتُ كَفافاً لا عليَّ ولا لِيا

وقد لقي راعياً في يوم فقال له: بعنا شاة من غنمك! فقال الراعي: الغنم لسيدي وليست لي. قال عمر: قل له أكلها الذئب! فقال الراعي: فأين الله؟ فأخذ عمر يبكي، ويقول: إي والله أين الله؟ إي والله أين الله؟

٦- الحياء

الشعور بمراقبة الله تعالى يورث في القلب الحياء من الله تعالى «فمن شهد مشهد علو الله على خلقه وفوقيته لعباده واستوائه على عرشه كما أخبر به أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق، وتعبد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب إليه، مناجياً له، مطرقاً واقفاً بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز، فيشعر بأن كلِمَهُ وعمله صاعد إليه، معروض عليه، فيستحي أن يصعد إليه من كلِمِهِ ما يخزيه ويفضحه هناك»[١].

لما تهيأت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ﴾[٢] استحضر يوسف عليه السلام مراقبة الله تعالى ورؤيته له فاستحيى من الله تعالى ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾[٣] **استحيى من الله تعالى أن يراه قد خان من أحسن مثواه وأكرمه.**

«فالعبد متى علم بنظر الله إليه ومقامه عليه وأنه بمرأى منه ومسمع وكان حيياً استحيى من ربه»[٤].

(١) طريق الهجرتين (٨٥).

(٢) يوسف (٢٣).

(٣) يوسف (٢٣).

(٤) طريق الهجرتين (٤٨٥).

خرج ابن جابر بن عبدالله الأنصاري ورجل ثقفي من المدينة إلى عبدالله بن عامر بن كريز عامل عثمان رضي الله عنه على العراق، فعلم بقدومهما عليه، حتى إذا كانا بناحية البصرة:

قال ابن جابر الأنصاري للثقفي: هل لك في رأي رأيته؟

الثقفي: اعرضه.

ابن جابر: رأيت أن ننيخ رواحلنا، ونتناول مطاهرنا، ونمس ماء ثم نصلي ركعتين ونحمد الله على ما قضى من سفرنا.

الثقفي: هذا الذي لا يرد. ثم توضآ وصليا ركعتين ركعتين، فالتفت الأنصاري إليه.

ابن جابر: يا أخا ثقيف ما رأيك؟!

الثقفي: وأي موضع رأي هذا؟ قضيت سفري وأنصبت بدني وأنضيت راحلتي ولا مؤمل دون ابن عامر، فهل لك رأي غير هذا؟

ابن جابر: نعم، إني لما صليت هاتين الركعتين فكرت، فاستحييت من ربي أن يراني طالباً رزقاً من غيره!

ثم قال: اللهم رازق ابن عامر ارزقني من فضلك، ثم ولَّى راجعاً

إلى المدينة.

ودخل الثقفي البصرة ثم دخل على ابن عامر فلما رآه رحَّب به.

قال ابن عامر: ألم أخبر أن ابن جابر الأنصاري خرج معك؟

فأخبره الثقفي بخبر ابن جابر الأنصاري، فبكى ابن عامر.

ثم قال ابن عامر: أما والله ما قالها أشراً ولا بطراً، ولكن رأى مجرى الرزق ومخرج النعمة فعلم أن الله الذي فعل ذلك فسأله من فضله.

فأمر للثقفي بأربعة آلاف درهم وكسوة وطرف، وأضعف ذلك كله لابن جابر الأنصاري، فخرج الثقفي يقول:

أُمامة ما حرص الحريص بزائد ... فتيلًا ولا زهد الضعيف بضائر
خرجنا جميعاً من مساقط رؤوسنا ... على ثقة منا بخير ابن عامر
فلما أنخنا الناعجات ببابه ... تأخر عني اليثرِبي ابن جابر
وقال سيكفيني عطية قادر ... على ما يشاء اليوم بالخلق قاهر
وإن الذي أعطى العراق ابن عامر ... لربي الذي أرجو لسدِّ مفاقري
فلما رآني سأل عنه صبابة ... إليه كما حنَّت ظراب الأباعر
فأضعف عبدَ الله إذ غاب حظَّه ... على حظ لهفان من الحرص فاغر
فأُبت وقد أيقنت أن ليس نافعي ... ولا ضائري شيء خلاف المقادر

٧- ترك المساخط والمعاصي ومخالفة الأولى

إن استحضار مراقبة الله تعالى ثم الحياء منه يورثان في العبد انقباضًا عن اقتراف المساخط. «كيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاقي الله وأن الله يسمع ويرى مكانه ويعلم سره وعلانيته ولا يخفى عليه خافية من أمره وأنه موقوف بين يديه ومسؤول عن كل ما عمل وهو مقيم على مساخطه مضيع لأوامره معطل لحقوقه![1]

قالت عائشة رضي الله عنها[2]: كان رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عنده ستة دنانير أو سبعة، فأمرني أن أفرقها، فشغلني وجعه ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها فقلت: لقد شغلني وجعك. فدعا ﷺ بها فوضعها في كفّه وقال: «ما ظنُّ نبيِّ اللَّه لو لقي الله وهذه عنده».

«فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفةً وعبوديةً استغنى به، وكذلك من شهد مشهد العالم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماوات؛ ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال؛ بل أحاط بذلك علمه علماً تفصيلياً؛ ثم تعبَّد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره وإراداته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإراداته وجميع أحواله ظاهرة

(١) الجواب الكافي (٣٥).

(٢) رواه أحمد (٦/١٠٤، ١٨٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠١٤).

مكشوفة لديه علانية له بادية لا يخفى عليه شيء منها.

وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه تبارك وتعالى لأصوات عباده على اختلافها جهرها وخفائها، وسواء عنده من أسر القول ومن جهر به، لا يشغله جَهْر من جَهَر عن سمعه لصوت من أَسَر، ولا يشغله سَمْع عن سَمْع، ولا تغالطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها، بل هي عنده كلها كصوت واحد، كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفسٍ واحدة.

وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في حندس الظلماء ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها ويرى مد البعوضة جناحها في ظلمة الليل وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية حرس حركاته وسكناته، وتيقن أنها بمرأى منه تبارك وتعالى، ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء»[(١)].

يوسف عليه السلام لما همّت به امرأة العزيز وراودته لمواقعتها ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ﴾[(٢)] بإلقاء الشيطان خاطرة المواقعة في قلب يوسف عليه السلام عصم

(١) طريق الهجرتين (٨٦).

(٢) يوسف (٢٤).

الله تعالى يوسف من الاستجابة لخواطر الشيطان بأن جعله يستحضر عظمة الله تعالى وكبرياءه وربوبيته وألوهيته، فاستحيا من الله تعالى وترك المعصية مستعيذاً بالله تعالى مستغيثاً به ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[1]. فهذا هو العهد الذي أخذه الله على نفسه بحفظ عباده ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[2]، فرأى يوسف في نفسه البرهان والدليل على صدق عهد الله لأوليائه المخلصين بعصمة الله له ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾[3].

جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم...

فقال: يا أبا إسحاق، إني مسرف على نفسي، فاعرض عليَّ ما يكون لي زاجراً لقلبي.

إبراهيم: إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك معصية.

الرجل: هات يا أبا اسحاق.

إبراهيم: الأولى؛ إذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه.

---

(١) يوسف (٢٣).

(٢) الحجر (٤٢).

(٣) يوسف (٢٤) .

قال: فمن أين آكل وكل ما في الأرض من رزقه؟

إبراهيم: يا هذا أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيه؟

قال: لا؛ هات الثانية.

إبراهيم: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده.

قال: هذه أعظم من الأولى، إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟

إبراهيم: يا هذا! أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟

قال: لا؛ هات الثالثة.

إبراهيم: إذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده فانظر موضعاً لا يراك فيه مبارزاً له فاعصه فيه.

قال: كيف هذا وهو مطلع على ما في السرائر؟!

إبراهيم: أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك؟ ويرى ما تجاهره به؟!

قال: لا؛ هات الرابعة.

إبراهيم: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له: أخِّرني حتى أتوب توبة نصوحاً، وأعمل لله عملاً صالحاً.

قال: لا يقبل مني.

إبراهيم: فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير؛ فكيف ترجو وجه الخلاص؟

قال: هات الخامسة.

إبراهيم: إذا جاءتك زبانية العذاب ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم.

قال: لا يقبلون مني، ولا يدعونني.

إبراهيم: فكيف ترجو النجاة إذاً؟

الرجل: حسبي، حسبي، أنا أستغفر الله وأتوب إليه. ولزم العبادة.

٨- محاسبة النفس

إن استحضار مراقبة الله تعالى ومراقبة النفس والشعور بالحياء من الله تعالى يورثان في العبد محاسبة النفس قبل مقارفة المعصية وبعدها، وقبل العمل وبعده. إذ يقارن العبد ما بين نعمة الله عليه وجناية نفسه الأمارة بالسوء، فتتبين له حقيقة نفسه وصفاتها وعظمة جلال الرب وتفرده بالكمال والإفضال، فيعلم حينئذ أن ليس إلا عفوه ورحمته «أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي».

إن العبد عندما يستحضر جنايته في حق صاحبه وصديقه مع عفو صديقه وحلمه وكرمه فإنه يستحيي منه، **ويحاسب نفسه** على جنايته، فكيف إذا ما استحضر كرم الله وعفوه وحلمه مع جناية العبد العظيمة؟ ثم هو موقوف غداً بين يديه وجناياته معروضة عليه؟ فإنه **يحاسب نفسه** أشد المحاسبة. كيف يلقى الله غداً؟! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾[1] ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اتقوا وقوفكم بين يدي الله يوم القيامة، ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ﴾ ليوم اللقاء مع الله تعالى والنظر هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله تعالى به أو لا يصلح؟ هل يُبيِّض وجهه أم يُسَوِّدُه؟ ﴿وَٱتَّقُوا۟

(١) الحشر (١٨).

ﭐللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[1] **اطلاعه وعلمه بك**[2] ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾[3] يعرض العبد على الله تعالى فيستحيي من ذاك اللقاء.

لذا كان النبي ﷺ يستغفر الله تعالى ويتوب إليه في المجلس مائة مرة[4] **محاسبة** دائمة في كل مجلس ليلقى الله تعالى وصحيفته بيضاء نقية.

قال عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾[5][6]. تعرض على من لا تخفى عليه أعمالكم.

قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾[7] حاسب نفسه فخاف قيامه بين يدي الله تعالى للمحاسبة والعقاب. قال أنس رضي الله عنه:

(١) الحشر (١٨).
(٢) راجع المدارج (١/ ١٧٠).
(٣) الحاقة (١٨).
(٤) رواه النسائي (١٠٢١٩) بسند صحيح، ونحوه البخاري (٦٣٠٧).
(٥) الحاقة (١٨).
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٢).
(٧) الرحمن (٤٦).

«دخل عمر رضي الله عنه حائطاً (بستاناً) فسمعته يقول من وراء الجدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين؟! بخ بخ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك»[١].

ونظر ابن الصمة يوماً إلى نفسه فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي خمسمائة وواحد وعشرون ألف يوم، فقال: يا ويلتى، ألقى الملك بواحد وعشرين ألف ذنب؟ فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟

(١) رواه مالك في الموطأ، رواية يحيى الليثي (١٨٠٠).

٩- فهم بعض النصوص

إذا تملك قلب العبد هيبةُ الله وجلالُه وعظمتُه تبين له لماذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب، واللبس والركوب والجماع، حيث يكسى العمل من الجلال والعظمة والبركة بذكر اسم الله تعالى... وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة، فإن الرب هو الذي يبارك وحده، والبركة كلها منه، وكل ما نسب إليه فهو مبارك[1] ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾[2].

وعلم حينئذ لماذا إذا ذكر اسم الله على المريض شفي، وكذا عند غلق الأبواب فإنه لا يقربها شيطان، وعند إيكاء الأسقية، وإذا قرأ القرآن عند النوم لا يقربه شيطان، ولا يضره شيء إذا ذكر اسم الله في الصباح والمساء ولو اجتمع عليه من بأقطارها؛ لكمال عظمته وكبريائه وهيبة المخلوقات من جلاله وجلال اسمه.

* * *

(١) الجواب الكافي (١٣٣).

(٢) الرحمن (٧٨).

الأثر الخامس: التوكل على الله تعالى والثقة به

الإيمان بصفات الله تعالى يورث التوكل عليه والثقة بوعده والاطمئنان إليه وعدم اضطراب القلب.

١- يورث التوكل عليه

للتوكل مراتب إذا اجتمعت في العبد تبوأ مقام التوكل. والإيمان بالأسماء والصفات يرتقي به من مرتبة إلى أخرى ليبوئه هذا المقام؛ وإليك التفصيل:

- **التعرف على الرب بصفاته وتوحيده يورث الاطمئنان**

إذا علم بأن الله تعالى هو الرب الأوحد في تصريفه لهذا الكون العظيم وتدبيره له لاينازعه منازع، وأن السماوات والأرضين في قبضته «وهو المتفرد سبحانه بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، فيثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ولوازمه وثمراته ظاهراً»[1].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٥١٠ - ٥١٣).

عندما يلجأ العبد إلى الله تعالى يعلم أنه لجأ إلى قوي متين فاقت قدرته كل شيء فلا يثبت أمامه عائق، لجأ إلى العظيم الذي أهلك قروناً كثيرة على أقوى أحوالها وأكمل عدتها وعددها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾[(١)] ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾﴾[(٢)]. بل هلاكها ما هو إلا نبذ كما ينبذ الحجر الصغير في ماء المحيط ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾[(٣)]، فأضحت أثراً بعد عين، مع كمال علمه وحكمته ورأفته ورحمته؛ وكمال عظمته وقوته وقدرته فلا يمتنع عنه شيء، فيعلم أنه قد لجأ إلى ركن شديد، حينئذ يورث له الاطمئنان لينتقل إلى مرتبة الاعتماد عليه.

كان النبي ﷺ عائداً من إحدى غزواته فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلَّق بها سيفه ونام في ظلها، فجاء رجل من المشركين فاخترط سيف رسول الله ﷺ، فاستيقظ والسيف

(١) الفجر (٦ –١٣).

(٢) الشمس (١٥).

(٣) القصص (٤٠).

في يده صلتاً، فقال المشرك: من يمنعك مني؟ فقال ﷺ: الله؛ برباطة جأش وثبات نفس وقوة يقين واطمئنان. فسقط السيف من يد المشرك، فأخذ ﷺ السيف ثم قال له: من يمنعك مني؟ فقال المشرك: كن خير آخذ. فقال ﷺ: تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟ قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله، فأتى المشرك أصحابه فقال: أتيتكم من خير الناس[(١)].

لما أراد الكفار قتل خبيب بين عدي رضي الله عنه سألوه إن كان له طلب ما، فطلب أن يصلي ركعتين، فلما سلم قال: والله لولا أن تحسبوا أن بي جزعاً من الموت لازددت صلاة، ثم شهر ذراعيه نحو السماء قائلاً: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً، ثم قال [بنفس مطمئنة متوكلاً على الله تعالى]:

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً ... على أي شق كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلْوٍ ممزع[(٢)]

(١) رواه البخاري (٤١٣٥ - ٤١٣٦)، ومسلم (٨٤٣).

(٢) رواه البخاري (٣٩٨٩، ٤٠٨٦).

● **يورث اعتماد القلب عليه**

إن صاحب المال إذا اطمأن إلى شريكه في التجارة ووثق بقدراته على تسيير أمور الشركة اعتمد عليه فيها بعد الله تعالى. ولله المثل الأعلى؛ إذا تيقن العبد أن الله هو الواحد في تسيير الأسباب المبذولة من قبل العبد لتحقيق نتائجها سواء صغرت هذه الأسباب أم عظمت سكن إلى الله تعالى واستند إليه، فلا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها. فالجوارح تشغل ببذل الأسباب بينما القلب لا يبالي بإقبالها ولا إدبارها، وإنما سكونه واعتماده على الله تعالى. «كحال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به، فرأى حصناً مفتوحاً فأدخله ربه إليه وأغلق عليه باب الحصن فهو يشاهد عدوه خارج الحصن. فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له.

وكذا من أعطاه ملك عشرة دراهم فقال له الملك: إن سرق منك درهم فلك عندي بدلاً عنه مائة درهم. فإذا وثق بقول الملك واطمأن إليه وعلم أن خزائنه مليئة بذلك لم يحزنه فوته[1].

كما حدث لمريم عليها السلام عندما أُمِرت بهز النخلة التي لا

(١) المدارج (٢ / ١٢٠ - ١٢١).

يهزها عشرة رجال ذوو قوة، فتساقط الرطب من هز امرأة ضعيفة ساعة الوضع في أضعف أحوالها لكمال ملكه وربوبيته، فالله تعالى هو الذي يعتمد العبد عليه عند بذله الأسباب لينتقل إلى مرتبة التأله.

● يورث الأمن

إذا علم العبد أن الله سبحانه إذا وعد صدق وخارت كل القوى أمام إرادته حينئذ يتمكن الشعور بالأمن في القلب بالرغم من اضطراب الأحوال واستحكام المصائب لإيمانه باسم المؤمن، فلا يشك في وعده ولا تلتفت القلوب إلى غيره، فهو الذي يؤمِّن تحقيق النتائج «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾(٢) حينئذ ينزل العبد منزلة الشعور بالأمن إلى كل ما أخبره به مولاه والتصديق به والتي يرتقي بها إلى منزلة حسن الظن بالله تعالى.

● يورث حسن الظن

فالله تعالى أكرم الأكرمين وأجود الأجودين ذو الجلال والإكرام، ورحمته غلبت غضبه وسبقته فلا يخيّب من دعاه، ويجيب دعوة الداع إذا دعاه، ويستحيي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً، وهو وحده

(١) رواه البخاري (٤٦٦٣).

(٢) التوبة (٤٠).

الذي يضمن لعباده أن من أطاعه في بذل الأسباب فإن النتائج كلها ستصب في مصلحته. فالخير بيديه والشر ليس إليه، وهو عند ظن عبده به كما قالت أم سلمة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أْجُرْني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا أجَره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها»(١). فلما توفي أبو سلمة استرجعتُ وقلت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [حسن ظن بالله تعالى]؛ ثم رجعت إلى نفسي قلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن علَيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطبني(٢).

● يورث توحيد الألوهية

فإذا تعرف على الله تعالى بصفاته العليا واقترن الاطمئنان إلى الله تعالى بحسن الظن به أورثه حب الله وارتقى مرتبة عليا في التوكل. إذ هو الواحد الذي تعلقت به القلوب، فقد كملت فيه صفات الود وموجبات الحب، فهو وحده الذي يستحق كمال الحب مع كمال الذل، فهو الله وهو الودود، فيشعر بالارتياح حين اللجوء إليه والانطراح بين يديه ليحظى بأسعد اللحظات حين يلقي بجسده

---

(١) رواه مسلم (٩١٨).

(٢) رواه أحمد (٤/٢٧-٢٨) ومسلم نحوه (٩١٨).

وروحه بين يدي من يحب؛ فهو غاية الغايات. فإذا كانت الجوارح متعلقة بالأسباب فالقلب غائب عنها؛ مستغرق في الحب الإلهي والعبودية الخالصة؛ معتمدًا عليه مطمئناً إليه. فعلى قدر حبك لله وإخلاصك له يتحقق مرادك، لَمْ يبخل عن أعدائه الكفار لمّا أخلصوا له ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾(١) فكيف بالمؤمنين؛ بمن يحبهم حينئذ ينتقل إلى مرتبة التسليم.

● يورث التسليم قبل نزول النتائج

إذ يعلم العبد أنه لا يقع أمر إلا بكمال علمه وقدرته ورحمته وإحسانه وكمال ملكه، ولا يقع إلا بإذنه ومشيئته وحده ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾(٢). ويعلم أن قضاء الله تعالى دائر بين العدل والحكمة والمصلحة من ناحية والرحمة والفضل من ناحية أخرى؛ فهو الحكم العدل، وأن رحمته سبقت غضبه، فيرضى قبل نزول القضاء، ويسلم لله منتظراً إياها. كما في حادثة الحديبية بعد أن بذل النبي ﷺ كل الأسباب الشرعية للعمرة فصدته قريش ووقّع معها الصلح مستسلماً لله تعالى قائلاً: «إني رسول الله ولن يضيعني

(١) العنكبوت (٦٥).

(٢) الإنسان (٣٠).

الله أبداً»[١] فكان أعظم فتح للمسلمين.

● يورث الرضا بعد نزول النتائج

فإذا آمن بقول الله تعالى في الحديث القدسي «إن رحمتي سبقت غضبي»[٢] علم أن كل نتيجة تحققت له قد غلب عليها جانب الرحمة على جانب الغضب فيورث له الرضا بالقضاء الإلهي بعد نزوله وشكر الله عليه.

وهكذا ينزله الإيمان بالأسماء والصفات ويرتقي به من مرتبة إلى أخرى إلى أن يتبوأ مقام التوكل.

(١) رواه مسلم (١٧٨٥).

(٢) رواه البخاري (٧٥٥٤).

٢- الثقة بوعد الله تعالى ونصره

إن التعرف على أسماء الله وصفاته والإيمان بها يورث الثقة بوعد الله تعالى واليقين بالنصر على الأعداء.

● الحَكَمُ العدل

فإذا علم أن الله تعالى هو الحَكَمُ العدل، فمن عدله أن ينصر دعوته ويقتص للمظلوم ولا بد، فهو وحده الذي يحكم العالم بقهره وعلمه وفضله وحكمته ورحمته.

● يمكر لأوليائه

وإذا علم أنه من يمكر بأولياء الله تعالى فإن الله يمكر به لتكون العاقبة لأوليائه وإن كانت الظواهر لا تقول ذلك ولكن الله تعالى يقوله ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾[١]. وأين مكر المخلوق من مكر الخالق، وأين كيده من كيد الجبار ملك الملوك الذي سماواته وأرضه ما هي إلا كحلقة ملقاة في فلاة بالنسبة لكرسيه ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾[٢]، ولكن ما

---

(١) النمل (٥٠ - ٥٢).

(٢) الطارق (١٥- ١٦).

هو إلا استدراج، فليتحين كيد الله ومكره.

● الاستدراج

ويثق بأن ما يجري على يد أعدائه من فساد وتسلط وإفساد ومحاولة لإذلال أوليائه ما هو إلا من مكر الله تعالى بهم ليستدرجهم فيوقع بهم في بئر مظلم عميق لا يعلمون قعره، فهم في غفلة وسكر وعمه ﴿... سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[1].

● يقلبها ضد مقصودها

ويثق بأن الأسباب بيد الله تعالى يُقَلِّبُها، ويجريها أحياناً ضد مقصودها لتحقق وعد الله تعالى الذي قطعه على نفسه ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾[2]، بل قد يقلبها على باذلها لتنقلب عقوبتها عليه ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾[3]، فدمرهم الله تعالى.

---

(١) الأعراف (١٨٢- ١٨٣).

(٢) الأنبياء (٦٩).

(٣) النمل (٤٨- ٥١).

وهذا فرعون جمع جنوده للقضاء على موسى عليه السلام وبني إسرائيل، فكان هذا الجمع الهائل لإهلاك جميع جيوشه على مرأى من بني إسرائيل لصدق الله تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾[1] حيث أخبر سبحانه ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[3].

«فيشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والتصرف من الإماتة والإحياء والتولية والعزل والخفض والرفع، والعطاء والمنع، وكشف البلاء وإرساله، وتقليب الدول ومداولة الأيام بين الناس إلى غير ذلك من التصرفات في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه، فمراسيمه نافذة فيهما كما يشاء ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾[4][5].

---

(١) الأنعام (١١٥).

(٢) هود (٤٩).

(٣) الصافات (١٧١- ١٧٣).

(٤) السجدة (٥).

(٥) طريق الهجرتين (٨٥ - ٨٦).

● معية الله تعالى

ويثق بأن الأحداث العصيبة التي تمرّ به ما هي إلا من تقدير الله تعالى ومشيئته، على مرأى من الله تعالى وسمعه وعلمه وقدرته مصحوبة بتأييد الله ونصره ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[1] لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾[2] ليقال في نهاية الأمر لأوليائه: تقدموا إلى منصة الفوز لتشربوا كأس الانتصار وحسن العاقبة. فيجمع لهم الأمر كله، ويحكّمهم في رقاب خصومه وأعدائه كما حصل ليوسف عليه السلام عندما حكَّمه الله تعالى في إخوته ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[3]. فيعلم أن الله تعالى معه في كل حدث يحدث له ويثق بأن وعد الله متحقق ولابد، ولو اجتمع عليه من بأقطارها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[4] قيل: نزلت عند خروج النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة[5]، فتحقق وعد الله

---

(١) التوبة (٤٠).

(٢) طه (٤٦).

(٣) يوسف (٧٦).

(٤) القصص (٨٥).

(٥) رواه ابن أبي حاتم عن الضحاك مرسلاً، وابن مردويه عن علي بن الحسين بن واقد مرسلاً؛ انظر الدر المنثور (٥/١٣٩).

تعالى بعد ثمان سنين، فرده الله تعالى إلى معادٍ فاتحاً مكة، منتصراً ظافراً. وقال الله تعالى ليوسف عليه السلام عند إلقائه في الجب وهو صغير ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] فنبأهم بأمرهم هذا قيل: بعد ثلاثين سنة وهم خاضعون له. ولما أوحى الله تعالى إلى أم موسى ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2] فذهب به الله إلى بيت ألدِّ أعدائه وخصومه فرعون ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾[3] ثم حقق الله وعده فرده إلى أمه مكرماً معززاً يحبه كل أهل مصر ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[4] فكان الله معه في كل حركة له لذا قالوا: المعرفة توجب السكينة.

(١) يوسف (١٥).

(٢) القصص (٧).

(٣) القصص (٨).

(٤) القصص (١٣).

٣- عدم الاضطراب في بذل الأسباب وملازمة أحكامه، والاستقامة فيها

إذا علم أن الله تعالى هو المدبر للكون وهو المتصرف في حوادثه وهو الواحد القهار، وهو على كل شيء قدير.

وهو الذي خلق الأسباب فجعل منها أسباباً **واجبة** البذل لكثرة المصالح فيها وقلة مفاسدها، وأنها طريق يحبها الله كثيراً لتحقق النتائج المرجوة كالصلاة المفروضة والصيام والجهاد والصدق في البيع وبيان عيوب السلعة.

وجعل منها أسباباً **مستحبة** مندوبة يستحب السعي فيها، وهي طريق يحبها الله تعالى لتحقيق النتائج كالسماحة في البيع والشراء والتغاضي عن الإخوان، والإقالة والشفاعات.

وجعل أسباباً **مباحة** يجوز السعي فيها لتحقيق النتائج.

وجعل منها أسباباً **محرمة**، مفاسدها عظيمة وعواقبها وخيمة، وهي طريق يبغضها الله تعالى لتحقيق النتائج لما فيها وفي نتائجها من المفاسد العظيمة كالغش والكذب والرشوة والسرقة والمقامرة والربا لتحصيل المال.

وجعل منها أسباباً **مكروهة** يكرهها الله تعالى لتحقيق النتائج، ومفسدتها أعظم من مصلحتها ولكنها لا تصل إلى التحريم كمسألة الناس والتذلل لهم وبذل ماء الوجه للحصول على مصلحة خاصة به.

فإذا علم أن الله تعالى قد كمل علمه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(١) وهو الذي قدر سقوط كل ورقة من أوراق الشجر في مكان لا تتجاوزه قيد أنملة، وكذا قطرات المطر لتمام الحكمة والمصلحة الكونية. فإذا لم يغب عن علمه وحكمته زمن وموضع سقوط كل ورقة من أوراق آلاف الأشجار، بل هو الذي قدَّر سقوطها لعظيم المصلحة علم أنه لم يشرع الأسباب الواجبة والمستحبة إلا لعلمه بأنها تحقق أفضل النتائج المرجوة بأكمل المصالح وأجمعها، وما منع الأسباب المحرمة والمكروهة إلا لعلمه بعدم تحقيقها للمصالح أو أن مفسدتها أعظم.

فإذا استقر هذا في قلبه سعى العبد في الوسائل والسبل التي يحبها الله تعالى من واجبة أو مستحبة، وإذا نزل فإنه ينزل إلى المباح. ويعلم أن السبل المحرمة والمكروهة لا يحصل بها التوفيق، لأن الله تعالى هو الذي يمضي هذه الأسباب في تحقيق نتائجها وهو الذي يمنعها، وهو

(١) الأنعام (٥٩).

الذي يجعل فيها البركة أو يطرحها عنها، فهو المتصرف فيها.

فلو علم الأب أن ولده سعى للحصول على المال منه ولكن بطريق نهاه الأب عن وُلُوُجِهِ والمضي فيه والأمر بيد الأب في العطاء والمنع فإنه يحجبه عنه. بينما إذا سعى في الطريق الذي يحبه الأب ثم علم الأب أن السبيل والطريق قد انقطع به فإنه يعينه ويمضيه له ويعطيه؛ ولله المثل الأعلى.

حينئذ لا يضطرب العبد ولا يتردد في الإعراض عن الأسباب المكروهة والمحرمة أو الامتناع عنها بالرغم من إغرائها وتَزَيُّـنِها له. بل ويضرب عنها صفحاً لعلمه أن المالك لزمامها هو الذي حرَّمها، وهو الذي حكم بفسادها وعدم تحقيقها للمقصود لأنها جاءت من إله كمل علمه وكملت حكمته وقدرته وتمت كلمته صدقاً وعدلاً.

حينئذٍ يطمئن القلب إلى الله تعالى المتوحد في الجلال، المتصرف في جميع الأحوال، ولايضطرب بين شركاء متشاكسين يتجاذبونه ويُصْدِرونَ أحكاماً متعارضة متضاربة وأسباباً متضادة. إنما الآمر الناهي المتصرف المدبر واحد، تكامل أمره مع نهيه، والأسباب مع نتائجها، فيشعر بالارتياح وعدم الاضطراب.

فلن يسعى الدعاة بعدها إلى الاستعجال وارتكاب المخالفات

الشرعية ضد الخصوم والأعداء والكفار وتبريرها بحجة نصر الإسلام، وإنما الإيمان واليقين بأن الذي أنزل إلينا الدين هو الذي أنزل إلينا الأحكام الشرعية في التعامل مع الخصوم والأعداء، فالمنزل واحد، والحاكم واحد، فكما وجب علينا اتباع هذا الدين وجب علينا الالتزام بالأحكام الشرعية في تعاملنا مع الكفار ومع المحاربين لنصرة الإسلام. فما علينا إلا بذل الأسباب الشرعية ثم نرتقب وننتظر حكم الله تعالى وقضاءه فينا وفيهم ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾[١].

● **«إنه ربي ولن يضيعني»**.

لما بركت ناقة النبي ﷺ في الحديبية قال ﷺ: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»[٢]. فبذل النبي ﷺ جميع الأسباب التي يحبها الله تعالى، ثم عقد معهم الصلح فيما ظنَّه النبي ﷺ مصلحة للإسلام ولم يضطرب قلبه. ولما حاوره بعض الصحابة في شروط العقد أجابهم النبي ﷺ بقلب مطمئن قد تنزلت عليه السكينة: «إني رسول

---

(١) يونس (١٠٩).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١).

الله ولن يضيعني الله أبداً»[1] فكان فتحاً مبيناً ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[2].

***

(١) رواه مسلم (١٧٨٥).

(٢) الفتح (١).

الأثر السادس: الزهد في الدنيا وفي حظوظ النفس

إن الإيمان بصفات الله العليا يورث في القلب الزهد في الدنيا وفي حظوظ النفس الدنيوية ويخلصه من أمراضها من كبر وعجب وغرور.

١- من شهد عظمة الله وكبرياءه وجلاله هانت عليه نفسه وهانت عليه كل عظمة وزهد في كل مخلوق يصده عنه

إذا شهد العبد سبق الله تعالى لكل شيء، وأوليته قبل كل شيء[١]، وأنه الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء[٢]، وهو المالك لكل شيء، ولايشرك في حكمه أحداً، وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار، وليس لأحد معه اختيار[٣]، وله سبحانه كل صفة كمال وكل اسم حسن[٤]، وشاهد جلال الرب تعالى، وجماله وكماله، ولو قدر جمال الخلق كلهم

(١) المدارج (٣ / ٢١٠).
(٢) المدارج (٣ / ٢١٩).
(٣) المدارج (٢ / ٢٢٥).
(٤) المدارج (٣ / ٢٤٢).

على واحد منهم ثم كانوا كلهم بذلك الجمال ثم نسب إلى جمال الرب تعالى لكان دون سراج ضعيف بالنسبة إلى عين الشمس. ولو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

ثم «شاهد عزه وسلطانه وقيوميته، وعلوه فوق عرشه، منفرداً بتدبير مملكته، وشاهد تكلمه بكتبه وكلمات تكوينه وخطابه لملائكته وأنبيائه، فشاهد فيها كونه آمراً ناهياً، مرسلاً رسله، ومنزلاً كتبه، يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويحب ويبغض، ويرحم إذا استرحم، ويغفر إذا استغفر، ويعطي إذا سئل، ويجيب إذا دعي، ويقيل إذا استقيل.

أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأعز من كل شيء، وأقدر من كل شيء، فلو كانت قوى الخلائق كلهم على واحد منهم ثم كانوا كلهم على تلك القوة ثم نسبت تلك القوى كلها إلى قوته تعالى لكانت أقل من قوة البعوضة بالنسبة إلى قوة الأسد.

يضع السموات على أُصُبع، والأرضين على أُصُبع، والشجر على أصبع، والماء على أصبع، يقبض سماواته بإحدى يديه، والأرضين بيده الأخرى، فالسموات السبع في كفه كخردلة في كف العبد، وكرسيه

موضع قدميه وسع السموات والأرض.

أعلم من كل شيء، وأحكم من كل شيء. فلو كان علم الأولين والآخرين على رجل منهم ثم كان كل الخلق على تلك الصفة ثم نسب إلى علم الرب تعالى لكان ذلك بالنسبة إلى علم الرب كنقرة عصفور في بحر. ولو أن الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم قاموا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله عز وجل[(١)].

حينئذٍ تضمحل فيه جميع المخلوقات، وصار له شهود يعلقه بربه الأعلى يسرح به في رياض الأنس به ومعرفته، ثم يأوي إلى مقاماته تحت العرش ساجداً له، خاضعاً لعظمته، متذللاً لعزته، لا يبغي عنه حولاً، ولا يروم عنه بدلاً[(٢)].

● **موسى عليه السلام وفرعون**

لما حضر موسى عليه السلام الطور وخاطبه الله تعالى بألطف خطاب وسمع صوت جلاله الذي ملأ الكون جمالاً وجلالاً وناداه وناجاه وقربه وكلمه بكلمات تقطر حُبًّا ومودة ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾[(٣)] ﴿وَأَلْقَيْتُ

(١) المدارج (٣ / ٢٥٢ - ٢٥٤) بتصرف.
(٢) المدارج (٣ / ٢١٠) بتصرف.
(٣) طه (١٣).

عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾(1) ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾(2) فاض شوق موسى عليه السلام حبّاً وقرباً من الله تعالى.

فأمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون المتجبر الذي هابه الرعية وادعى أنه الرب الأعلى، فتهاوى جبروته في قلب موسى عليه السلام أمام كبرياء الله تعالى، وزهد في عظمته وملكه أمام ملك الله تعالى وعظمته، فاقتحم موسى عليه السلام مقر ملكه وجبروته وبين يديه جنده ووزراؤه في قصره ومملكته قائلاً بثبات جأش وقوة قلب: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾(3).

● النبي ﷺ وأبو جهل

ولما قال أبو جهل عن رسول الله ﷺ(4): «هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب». فلم يبال النبي ﷺ بتهديد أبي جهل مستحضراً عظمة الله تعالى، فهان عليه وعيده وتهديده. فأتى أبو جهل

(١) طه (٣٩).
(٢) طه (٤١).
(٣) طه (٤٧).
(٤) رواه مسلم (٢٧٩٧).

رسولَ الله ﷺ وهو يصلي - زعم ليطأ على رقبته، فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه. فقيل لأبي جهل: ما لك؟ قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». فأنزل الله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾[(١)].

ولما مرَّ النبي ﷺ على الملأ من قريش وهو يطوف بالكعبة جعلوا يتغامزون فقال لهم بنفس عزيزة بالله، قد ملأ قلبه عظمة الله تعالى فلم يهبهم: «لقد جئتكم بالذبح». فخضع عظماء قريش وأشرافهم للنبي ﷺ قائلين: انصرف يا أبا القاسم راشداً فوالله ما كنت جهولاً[(٢)].

- **العز بن عبدالسلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال الباجي: خرج السلطان أيوب في يوم العيد في أبهة الملك، وأخذت الأمراء تقبل الأرض، فالتفت إليه الشيخ العز بن عبدالسلام وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟

السلطان: هل جرى هذا؟

(١) العلق (١٥-١٩).

(٢) رواه أحمد (٢١٨/٢) وصححه ابن حبان (٦٥٦٧/١٤).

العز: نعم وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة. يناديه بأعلى صوته والعساكر واقفون.

السلطان: يا سيدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

العز: أنت من الذين يقولون ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[1]؟!

فأمر السلطان بإبطال تلك الحانة.

فسأله الباجي: أما خفته؟

قال العز: والله يا بني، استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قدامي كالقط[2].

- **شيخ الاسلام ابن تيمية وسلطان التتر**

ولما توجه شيخ الإسلام ابن تيمية إلى غازان ملك التتر الذي تهيأ لغزو الشام أوقع الله في قلب السلطان هيبة عظيمة للشيخ. فذكَّره الشيخ بالله تعالى، ورفع صوته عليه، واقترب منه، وكادت ركبته تلاصق ركبة السلطان، والسلطان مقبل عليه بكُلِّيَتِه. وقال له الشيخ: أنت تزعم أنك مسلم، فغزوتنا؟! وأبوك وجدك كانا

(١) الزخرف (٢٢).

(٢) طبقات الشافعية (٥ / ٨١ - ٨٢).

كافرين وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفَّيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفَّيت وفجرت.

وإن السلطان من شدة ما أوقع الله في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه: من هذا الشيخ؟ فإني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقياداً مني لأحد منه!

فخرج من عنده مكرماً معززاً وكان سبباً لتخليص كثير من أسارى المسلمين من أيديهم وردهم إلى أهليهم. فكان شيخ الإسلام رضي الله عنه يقول: «لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه»[(١)]. لذا قيل: من أمارات المعرفة بالله الهيبة، فمن ازدادت معرفته زادت هيبته عند الخلق.

● لمَّا حجَّ المهدي دخل مسجد رسول الله ﷺ، وكان العالِم ابن أبي ذئب جالساً في المسجد يسبح الله ويذكره، فلما دخل المهدي لم يبق أحد من الجالسين في المسجد إلا وقف، أما ابن أبي ذئب فلم يقم من مكانه، فقال له أحد الحاضرين منكراً ذلك عليه: قم فإن هذا أمير المؤمنين. فقال العالِم: إنما يقوم الناس لرب العالمين. فجعل المهدي يهتز ويرتعد ويتأثر بهذه الموعظة الجليلة واللفتة المؤثرة، فقال المهدي

(١) الأعلام العلية (٧٢ - ٧٤).

للرجل: دعه دعه، فلقد قامت كل شعرة في رأسي!

● ولما سُئل خالد بن الوليد رضي الله عنه عن قتاله للعدو مع كثرته وقوته وقلة جيش خالد وضآلة عدده وعتاده، قال: «أرى والله أنا إن كنا إنما نقاتل بالكثرة والقوة فهم أكثر منا وأقوى علينا، وإن كنا إنما نقاتلهم بالله ولله فما أرى أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعاً تغني عنهم شيئاً».

٢- من شهد ملك الله وجماله استغنى به وهانت أمامه جميع أنواع الزينة فلم تفتنه زينة دنيوية.

فمن شهد أن كرسي الله تعالى الذي هو موضع القدمين كما قال ابن عباس رضي الله عنه؛ قد وسع السموات والأرض بذهبها وماسها وفضتها وجواهرها وزينتها؛ وما هي بالنسبة إلى الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة هانت عليه زينة الدنيا وأموالها ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾[1].

لذا وردت أعظم آية في كتاب الله تعالى وهي آية الكرسي بما تضمنته من عظيم الصفات لله تعالى بعد الأمر بالإنفاق، ليهون على العبد الإنفاق ويزهد فيه أمام عظمة ملك الله تعالى. وعندما قال المنافقون: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ۗ﴾[2] أجابهم الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[3].

«فإذا شهد العبد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم على كل شيء، وقائم على كل نفس بما كسبت، وأنه تعالى هو القائم

(١) طه (١٣١).

(٢) المنافقون (٧).

(٣) المنافقون (٧).

بنفسه المقيم لغيره، القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه، وأنه بكمال قيوميته لاينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يضل ولا ينسى. وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية.

وأعلى منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء، وهو شهادة أن لا إله إلا هو وأن إلهية ما سواه باطل ومحال، كما أن ربوبية ما سواه كذلك، فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويُعبد ويُصلى له ويُسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده، فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال، وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها، وكل غنى بغيره فقر وفاقة، وكل عز بغيره ذل وصغار، وكل تكثر بغيره قلة وذلة.

فكما استحال أن يكون للخلق رب غيره فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره، فهو الذي انتهت إليه الرغبات، وتوجهت نحوه الطلبات، ويستحيل أن يكون معه إله آخر، فإن الإله على الحقيقة هو الغني الصمد، الكامل في أسمائه وصفاته، الذي حاجة كل أحد إليه ولا حاجة به إلى أحد، وقيام كل شيء به وليس قيامه بغيره، ومن

المحال أن يحصل في الوجود اثنان كذلك، ولو كان في الوجود إلهان لفسد نظامه أعظم فساد، واختل أعظم اختلال.

كما يستحيل أن يكون للوجود فاعلان متساويان كل منهما مستقل بالفعل، فإن استقلالهما ينافي استقلالهما، واستقلال أحدهما يمنع ربوبية الآخر. فتوحيد الربوبية أعظم دليل على توحيد الإلهية، وكذلك وقع الاحتجاج به في القرآن أكثر مما وقع بغيره لصحة دلالته وظهورها؛ وقبول العقول والفطر لها؛ ولاعتراف أهل الأرض بتوحيد الربوبية. وكذلك كان عبّاد الأصنام يقرون به وينكرون توحيد الإلهية، ويقولون ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[1] مع اعترافهم بأن الله وحده هو الخالق لهم وللسموات والأرض وما بينهما، وأنه المنفرد بملك ذلك كله، فأرسل الله تعالى يذكرهم بما في فطرهم والإقرار به من توحيده وحده لا شريك له، وأنهم لو رجعوا إلى فطرهم وعقولهم لدلتهم على امتناع إله آخر معه واستحالته وبطلانه.

فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات، ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله

(١) ص (٥).

جل جلاله، فإن هذا الاسم هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه، فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1].

فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها، وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته، فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية، وقام بحقه من التعبد الذي هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالإله الحق، وصار من أغنى العباد، ولسان حال مثل هذا يقول:

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنى العالي عن الشيء لا به

فيا له من غنى ما أعظم خطره، وأجل قدره، **تضاءلت دونه الممالك فما دونها**، فصارت بالنسبة إليه كالظل من الحامل له، والطيف الموافي في المنام الذي يأتي به حديث النفس ويطرده الانتباه من النوم.

ومن درجات الغنى بالرب جل جلاله الفوز بوجوده، هذا الغنى أعلى درجات الغنى، لأن الغنى الأول كان من آثار ذكر الله والتوجه

(١) الأعراف (١٨٠).

إليه، ففاض على القلب من صدق التوجه أنوار الصفات المقدسة، واستغنى القلب بذلك، وجعل له أيضاً أنوار الشعور بكفالته وكفايته لعبده، وحسن وكالته وقيوميته بتدبيره وحسن تدبيره، فاستغنت النفس بذلك أيضاً.

وأما هذا الغنى -الذي هو الغنى بالحق- فهو من آثار وجود الحقيقة، وهو إنما يكون بعد ترقيه من آثار الصفات إلى آثار وجود الذات، وإنما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عين اليقين عندما يطلع فجر التوحيد، فهذا أوله وكماله عند طلوع شمسه، فينقطع ضباب الوجود الفاني، وتشرق شمس الوجود الباقي، فينقطع لها كل ضباب، وهذا عبارة عن نور يقذف في القلب يكشف له بذلك النور عن عظمة الذات، كما كشف له بالنور الذي قبله عن عظمة الصفات.

فإذا كان أثر من آثار صفات الذات أو صفات الأفعال يُغني القلب والنفس، فما ظنك بما تكاشف به الأرواح من أنوار قدس الذات المتصفة بالجلال والإكرام، فهذا غنى لا يناله الوصف، ولا يدخل تحت الشرح، فيستغني العبد الفقير بوجود سيده العزيز الرحيم[1].

(١) طريق الهجرتين (٨٦ - ٨٩).

«من درجات الغنى بالله ﷻ دوام شهود أوليته تعالى، وهذا الشهود عند أرباب السلوك أعلى، والغنى به أتم، لأنه من مبادئ الغنى بالحقيقة، لأن العبد إذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره، وهو الإله الحق الكامل في أسمائه وصفاته، الغني عما سواه، الحميد بذاته قبل أن يخلق من يحمده ويعبده ويمجده، فهو معبود محمود حي قيوم له الملك وله الحمد في الأزل والأبد، لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الجلال، منعوتاً بنعوت الكمال، وكل شيء سواه فإنما كان به، وهو تعالى بنفسه ليس بغيره، فهو القيوم الذي قيام كل شيء به، ولا حاجة به في قيوميته إلى غيره من الوجوه.

فإذا شهد العبد سبقه تعالى بالأولية ودوام وجوده الحق وغاب بهذا عما سواه من المحدثات فنى في وجوده من لم يكن، وبقى من لم يزل، واضمحلت الممكنات في وجوده الأزلي الدائم، بحيث صارت كالظلال التي يبسطها ويمدها ويقبضها، فيستغني العبد بهذا المشهد العظيم، ويتغذى به عن فاقاته وحاجاته[1]. قال الحسن البصري: «من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها». لما خُيِّر النبي ﷺ بين أن يكون

(١) طريق الهجرتين (٨٤).

ملكاً نبياً أو عبداً رسولاً، اختار أن يكون عبداً رسولاً[1] لهوان ملك الخلق.

● ابن تيمية وهوان المملكة

حين وشي بشيخ الاسلام ابن تيمية إلى السلطان الناصر أحضره بين يديه. قال السلطان: إني أخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك. رد شيخ الإسلام ابن تيمية بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوتٍ عالٍ: أنا أفعل ذلك؟! والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسين.

فتبسم السلطان فقال: إنك والله لصادق، وإن الذي وشى بك إليَّ كاذب[2].

● عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه وتجار المدينة

عندما أجدبت المدينة وصلت قافلة من الشام لعبدالرحمن بن عوف محملة بالطعام، فتنافس تجار المدينة لشرائها، وعرضوا عليه أثماناً باهظة، وهو ما يزال يقول زاهداً في عرضهم: أعطاني غيركم أكثر من هذا! فقالوا: نحن تجار المدينة لم نعرض أكثر من هذا؟! فقال رضي الله عنه:

(١) رواه أحمد (٢/٢٣١) وصححه الألباني في الترغيب (٣٢٨٠).
(٢) الأعلام العلية (٧٤).

عرض الله تعالى أكثر من عرضكم ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[1] أشهدكم أنها لله تعالى، فهي لكل أهل المدينة. فهانت في عينه المبالغ الباهظة التي عرضت عليه أمام عرض الله تعالى.

لعلك عرفت الآن لماذا صبر نوح عليه السلام على كفر قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعرفت كيف صبر إبراهيم الخليل ﷺ على كفر قومه وعلى الإلقاء في النار ثم الائتمار بترك ابنه وأمه بواد غير ذي زرع... ثم بذبح ابنه.

لعلك حينئذ لا تعجب حين يبلغك عن الصحابة أمور لا يكاد يصدقها عقل لولا صحة النقل.

- **الحب يهون أمامه كل شيء**

فأبوبكر يتصدق بماله كله.

وعمر يهاجر نهاراً.

وعثمان يأبى أن يرفع سيف دونه، بل اختار أن يقتل ولا تحدث فتنة بين المسلمين .

(١) البقرة (٢٤٥).

وصحابي آخر في موقف القتل لا يتمنى أن يكون في أهله سليماً معافى بينما أحب البشر إلى الله رسول الله ﷺ يشاك بشوكة وهو في أهله.

وأم سلمة يفارقها زوجها وينتزع منها ولدها وتخلع يده والقلب يحزن لكنه في ذات الإله يهون.

٣- علاج للرياء

ومن شهد عزة الله تعالى وكرمه وجوده ورحمته ومجده وتصريفه الأمور ووحدانيته في التصرف ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾[1] زهد في ثناء الناس، ولم يتخطفه حينئذ مدحهم ولم يقف عند ذمهم، ولم يتطلع إلى باب الرياء. بل سمت به مراءاة الله تعالى عن مراءاة المخلوقين التي تهاوت فسقطت من عينه.

- **ليرين الله ما أصنع**

أنس بن النضر رضي الله عنه فاتته غزوة بدر فلم يشهدها فقال[2]: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه؟! لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء. ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: يا سعد، الجنة ورب النضر؟! واهاً لريح الجنة، إني أجد ريح الجنة دون أحد. فقاتلهم حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين طعنة ورمية، فما عرفه إلا أخته ببنانه. قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ

(١) آل عمران (٢٦).

(٢) رواه البخاري (٢٨٠٥).

وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1].

«اعلم أنه متى استقرت قدم العبد في منزلة الإخبات وتمكن فيها ارتفعت همته وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم. . .، وهذا وصف من خرج عن حظ نفسه، وتأهل للفناء في عبودية ربه، وصار قلبه مطَّرحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات، وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه.

والوقوف عند مدح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب وخلوه من الله، وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته، ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه»[2].

(١) الأحزاب (٢٣).
(٢) المدارج (٢ / ٦).

٤- علاج للكبر والعجب والغرور

عندما يرى العبد ويشهد فضل الله عليه بالنعم من مال ومنصب وجاه وشرف، ودهاء وفطنة وذكاء وعلم وحفظ، وأنه فضل محض من الله تعالى، وأن الله تعالى هو الذي قدر له هذا وأعانه عليه ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[(١)] ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[(٢)].

«وأن ذات العبد وصفاته وأفعاله وقواه وحركاته كلها مفعولة للرب مملوكة له، ليس يملك العبد منها شيئاً، بل هو محض ملك الله. فهو المالك لها المنعم على عبده بإعطائه إياها، فالمال ماله، والعبد عبده، والطاعة مستحقة عليه بحق الربوبية، وهي من فضل الله عليه، فالفضل كله لله، ومن الله، وبالله»[(٣)].

وهو الذي أقامه في هذا المقام ومنحه وتفضل عليه به، فلم العجب؟ ولِمَ الغرور والكبر؟ فعلام يتكبر؟! حينئذٍ يحتقر عمله وفضله «ويندرج عمله جميعه وأضعافه وأضعاف أضعافه في حق ربه تعالى، ورآه جنب حقه أقل من خردلة بالنسبة إلى جبال الدنيا، فسقط من قلبه اقتضاء حظه من المجازاة عليه لاحتقاره له وقلته عنده وصغره

(١) النساء (٧٩).

(٢) النحل (٥٣).

(٣) المدارج (٣/ ١٥٩-١٦٠) بتصرف.

في عينه[1].

● **الخلاصة**

١- من شهد عظمة الله وكبرياءه وجلاله **هانت أمامه كل عظمة**.

٢- ومن شهد ملك الله تعالى وجماله استغنى به **وتهاوى كل ملك وكل زينة، ولم تفتنه زينة دنيوية**.

٣- ومن شهد عزة الله ومجده وكرمه وجوده ورحمته، ووحدانيته في التصرف **لم يتخطفه مدح الناس، ولم يقف عند ذمهم، ولم يتطلع إلى الرياء والتسميع**.

٤- وإذا شهد فضل الله عليه، وأن كل نعمة به من مال ومنصب وشرف وجاه وذكاء ودهاء هي محض فضل من الله تعالى **لم يصبه عجب ولا غرور ولا كبر** فإن شاء الله سلبها وإن شاء أبقاها، ولا يخاف عقباها.

❊ ❊ ❊

(١) المدارج (٣/ ١٥٩-١٦٠).

الأثر السابع: الرجاء وعلو الهمة

معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا تورث في النفس التعلق بالله تعالى لكمال سؤدده وملكه، مما يبعث فيها سعة الرجاء التي تُرَغِّبهُ في التوبة وفعل الطاعات بل وتعلو همته في سيره إلى الله تعالى.

١- السؤدد التام

النفوس تتعلق بالحسب والشرف، وكلما ازداد شرف الذات ازداد التعلق بها. لذا تجد مجالس الملوك عامرة بالناس، فإذا ذهب الشرف خلت تلك المجالس.

فإذا شهد العبد سبق الله تعالى لكل شيء وأوليته قبل كل شيء[(١)]؛ وهو المالك لكل شيء ولا يشرك في حكمه أحداً وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار؛ وليس لأحد معه اختيار[(٢)]؛ وله سبحانه كل صفة كمال وكل اسم حسن[(٣)]؛ وشاهَدَ جلال الرب تعالى وجماله وكماله؛ وعزه

(١) المدارج (٣ / ٢١٠).
(٢) المدارج (٢ / ٢٢٥).
(٣) المدارج (٣ / ٢٤٣).

وسلطانه وقيوميته وعلوه فوق عرشه؛ منفرداً بتدبير مملكته «صار للعبد رجاء عظيم يعلقه بربه الأعلى، يسرح به في رياض الأنس به ومعرفته، ثم يأوي إلى مقاماته تحت العرش ساجداً له، خاضعاً لعظمته، متذللاً لعزته، لا يبغي عنه حولاً، ولا يروم عنه بدلاً»[1] فتعلو همته لتسرح روحه مع الملائكة حافين من حول العرش.

● **سورة النجم والكفار**

عند ما قرأ النبي ﷺ سورة النجم[2] في العهد المكي على قلة عدد الصحابة المؤمنين مع تسلط الكفار أخذت السورة بقلوب سادة قريش وألِبّائهم، فعايشوا فيها عظمة الله وسؤدده وجلاله. فقرأ ﷺ فيها: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾[3].

ثم عايشوا فيها جبروته وكبرياءه وقهره ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ

---

(١) المدارج (٣ / ٢١٠).

(٢) رواه البخاري (١٠٧٠).

(٣) النجم (٤٢ - ٤٩).

أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[1].

شاهدت قلوبهم هذه العظمة والسؤدد والجلال، ثم شرف البلاغة وعظمتها. فلما انتهى النبي ﷺ في قراءته إلى قول الله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾[2] قامت قريش بأسيادها وأشرافها وشيوخها وشبابها وعبيدها فخرت ساجدة لله تعالى لكمال سؤدده، إلا رجلاً واحداً ذلل جبهته بالتراب تعظيماً للقرآن عندما لم يطاوعه جسده.

فالقلوب تسجد تكريماً وتشريفاً قبل سجود الجباه بلا طلب ولا أمر، وإنما شرفاً وإعجاباً كما سجد إخوة يوسف عليه السلام له لما رأوا من شرف الملك وأبهته، وكما سجد بعض الشعراء زوراً لما سمعوا قصيدة أبي نواس الخمرية سجدوا في نهايتها للإعجاب بها، فتعلقوا بها معجبين.

هكذا صفات السؤدد تجعل القلب متعلقاً بالذات خاضعاً لها، محباً والهاً، راجياً راغباً في زيادة القربى ورجاء الزلفى والقرب القلبي، فهذا الرجاء ليس كرجاء الحصول على النعيم الجسدي؛ فهذا لون وهذا لون، فالأول لا تصفه العبارة.

(١) النجم (٥٠ - ٥٥).

(٢) النجم (٦٢).

٢- سعة الرجاء

إذا عرف العبد ربه بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته فإنها توجب له سعة الرجاء، وتثمر له من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه بصفات الله تعالى[(١)].

«وكذا حال الموحد عند ذكر اسم **الرحمن** جل جلاله فإنه يشهد رباً محسناً إلى خلقه بأنواع الإحسان، متحبباً إليهم بصنوف النعم، وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلاً، فوسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته كل حي، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه.

فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته، وأنزل كتبه برحمته، والنار أيضاً برحمته؛ فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته؛ يُطَهر بها أدران الموحدين من أهل معصيته؛ وسجنه الذين يسجن فيه أعداءه من خليقته.

فتأمل ما في أمره ونهيه ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة والنعمة السابغة، وما في حشوها من الرحمة والنعمة. فالرحمة هي السبب المتصل منه بعباده، كما أن العبودية هي السبب المتصل منهم به، فمنهم إليه العبودية، ومنه إليهم الرحمة.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٥١٠ - ٥١١).

ومن أخص مشاهد هذا الاسم شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقامه بها بين يدي ربه، وأهَّله لعبوديته ومناجاته، وأعطاه ومنع غيره، وأقبل بقلبه وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته به[1]. لذا يقول في كل ركعة: **الرحمن الرحيم**.

ولما شاهد النبي ﷺ امرأة من السبي تبحث لاهثة عن رضيعها كلما رأت رضيعاً أخذته وضمته إلى صدرها لترضعه ثم بعد أن حدقت فيه علمت أنه ليس ابنها فتركته وهكذا تتلقف الرضع وتضمهم إلى صدرها ظانَّة رضيعها سأل النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قالوا: لا! فقال ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[2] حينئذٍ يشهد القلب تفتح أبواب الرحمة الإلهية على مصاريعها راغباً راجياً متعلقاً.

ومن ذلك قول النبي ﷺ في آخر رجل يخرج من النار، وبعده تغلق النار أبوابها فلا يخرج منها أحد، هذا الرجل حين يخرج بعد دهر من التضرع والسؤال والاستغاثة قال فيه النبي ﷺ: «آخر أهل الجنة دخولاً الجنة رجل مقبل بوجهه على النار فيقول: أي ربِّ، اصرف وجهي عن النار فإنه قد قشبني (قذرني وسمَّني) ريحها

(١) الصلاة وحكم تاركها (١٧٣ - ١٧٤).
(٢) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

وأحرقني ذكاؤها (شدتها ولهيبها). فيدعو الله ما شاء أن يدعوه، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا أسألك غيره. ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله. فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول: أي ربِّ! قدِّمني إلى باب الجنة. فيقول الله له: أليس أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك! فيقول: أي رب! ويدعو الله حتى يقول الله له: فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك. فيعطى ربه ما شاء من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة انفهقت (فتحت وبرزت) له الجنة، فرأى ما فيها من الخير والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، أدخلني الجنة. فيقول الله تبارك وتعالى له: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك. فيقول: أي ربِّ، لا أكون أشقى خلقك. فلا يزال يدعو الله، فيقول الله له: تمنَّه. فيسأل ربه ويتمنى، ويذكِّره الله تعالى: سل كذا وكذا. فإذا انقطعت الأماني قال الله له: ذلك لك وعشرة أمثاله. فيضحك الله تبارك وتعالى منه. فيقول العبد: أتستهزئ بي وأنت رب العالمين؟! فيقول الله تعالى: لا أستهزئ بك ولكني

على ما أشاء قادر»[١].

سمع أعرابي أن الله يضحك؛ رب يضحك! رب يضحك! فقال: لن نعدم خيراً من ربٍّ يضحك. فانظر إلى أثر الإيمان بصفة الضحك لله تعالى وما أثمرت في قلبه من عظم الرجاء والتعلق بجلاله.

(١) رواه مسلم (١٨٢، ١٨٦، ١٨٧).

٣- باعث للتوبة

إن معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى تقود العبد إلى التوبة من الذنوب ومن مخالفة الأولى لينال عفوه.

● **لَلَّهُ أشد فرحاً بتوبة العبد**

من آمن بصفة الفرح الواردة في الحديث النبوي: «لَلَّهُ أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته. فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها»[١].

أ- **هذه فرحة إحسان وبر ولطف**، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده منتفع بها[٢]. ويمكن تصور هذه الصفة كالآتي:

فضّل الله تعالى الإنسان وكرّمه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[٣] فخلق أباه بيديه ونفخ فيه من روحه وعلَّمه أسماء كل شيء وأسجد له ملائكته.

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له.
(٢) المدارج (١ / ٢١١ - ٢١٧).
(٣) الإسراء (٧٠).

ولهذا المحبوبِ عدوٌ هو أبغض الخلق إلى الله تعالى، فعرَّفه الله تعالى بهذا العدو، وبيَّن له كل طرائقه وحذره من متابعته. وأخبره عن نفسه بأنه أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر، وأحب ما إليه أن يجود على عباده؛ ويوسعهم فضلاً؛ ويغمرهم إحساناً وجوداً؛ ويضاعف منَّتَهُ لهم، وأن محبته للجود والإحسان والبر والإنعام فوق ما يخطر ببال الخلق أو يدور في أوهامهم، وأن فرح الله بعطائه وجوده للعبد أشد من فرح العبد بما أخذ، وأنه يعظم فرح العبد بالعطية التي أخذها بعظم حاجته للعطية وشدة فقره إليها؛ وعظم قدرها؛ وأنه لا نظير لها؛ وعظم الانتفاع بها وشدة حرصه وشحه؛ وكراهيته لبذل ماء وجهه للسؤال عن مثلها لو فقدها.

لذا يغيب العبد -بلذَّةِ أخذه- عن لذة المعطي وسروره وفرحه بما أعطى. فإذا تاب العبد الآبق، وتحلل من سلطان عدوه إلى حِمى مليكه فإن فرح الله تعالى بعطائه للعبد أشد وأعظم من فرح هذا العبد بما أخذ، وربما غاب العبد بالعطية لشدة فرحه بها، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد من هذا، ولله المثل الأعلى. فلو قارف العبد المعصية ثم هجم هذا الشعور الإيماني على قلبه لإيمانه بهذه الصفة كيف يكون حاله؟ وكيف يكون رجاؤه؟

فالله تعالى يحب أن يصير رضاه موضع غضبه وسخطه، وعفوُه موضع عقوبته، وكرمُه وبرُّه وعطاؤه موضع حبس النعمة ومنعها[1].

ب- فرحه لسعادة الخلق

خلق الله الإنسان من أجل أن يسعد كمال السعادة، وعرَّفه طريقها وهو عبادة الله تعالى وحده. لكن العبد قطع طريق السعادة بارتكابه المساخط، وتعرضه لغضب الله، وفتح لنفسه طريق الانتقام والعقوبة، فسلك طريقاً وعراً، مليئاً بالمصائب والآلام، والأهوال والأحزان، والغموم والهموم، والضياع والحيرة، والتردي والسقوط، والمكر والخديعة.

فاشتد صراخه، وعظمت آلامه، وسامه أعداؤه سوم العذاب، وعرَّضوه لأنواع الهلاك. فأمسى طريق السعادة حلماً له، وأملاً يرجو نيله، يتغنى به ليل نهار. وفي ليلة سوداء حالكة الظلام مليئه بالأحزان إذا بمعين ينتشله ويأخذ بيده ويدخله طريق السعادة، فوجد السعادة فيه أعظم مما كان يرجوه.

فالله أشد فرحاً بسعادة العبد عند توبته من سعادة العبد نفسه وفرحه، إذ حقق الغاية التي من أجلها خلقه وهي أن يراه سعيداً

(١) انظر المدارج (١/٢١١-٢١٢).

فرحاً مسروراً، فالسعادة الحقة لا تفارق العبودية. حينئذ ينتقل العبد إلى مرتبة أعلى في منزلة الرجاء.

جـ- فرحة حب

أحبَّ الله تعالى آدم وبنيه وفضَّلهم، فإذا ما تعرض العبد لغضب الله، وانقلب آبقاً شارداً، راداً لكرامته، مائلاً عنه إلى عدوه؛ كمحبوبك تحبه حباً شديداً، انقلب وأبق شارداً، راداً لكرامتك ومائلاً عنك إلى عدوك، وأنت أولى به منه، وهو غرسك وتربيتك، ثم انقلب من عدوك، ووافاك على غير ميعاد، فلم يفجأك إلا وهو على بابك، يتملقك ويترضاك ويستعينك، ويمرغ خديه على تراب أعتابك؛ فكيف يكون فرحك به؟ وقد اختصصته لنفسك، ورضيته لقربك، وآثرته على سواه؟ هذا هو حقيقة الفرح، ولله المثل الأعلى(١).

كالحكاية المشهورة: أن أحد العارفين حصل له شرود وإباق من سيده، فرأى في بعض السكك باباً قد فتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي وأمه خلفه تطرده حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت. فذهب الصبي غير بعيد ثم وقف مفكراً، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يؤيه غير والدته. فرجع مكسور القلب

(١) المدارج (١/ ٢١٣-٢١٦).

حزيناً، ووجد الباب مرتجاً فتوسده، ووضع خده على عتبة الباب ونام. فخرجت أمه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم أقل لك لا تخالفني؟ ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلتُ عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت[1]. فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من فرح هذه الأم بولدها.

فتأمل أثر الإيمان بصفة الفرح الواردة في هذا الحديث على قلبك؟ وكيف ينقلك إلى مرتبة عليا من الرجاء.

(١) المدارج (١/ ٢١٣-٢١٦).

٤- باعث لفعل الطاعات

إن معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى تحفز العبد لفعل الطاعات والإقبال عليها بشغف.

● **الله تعالى يحب الطاعات**

طبيعة المحب أن ينجفل ويكب على محاب المحبوب:

يميناً إذا كانت يميناً وإن تكن شمالًا ينازعني الهوى عن شماليا
إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا كفى لمطايانا بذكراك هاديا

وقال آخر:

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

«فهو سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحماء، ستير يحب من يستر على عباده، عفو يحب العفو عنهم، غفور يحب من يغفر لهم، لطيف يحب اللطيف من عباده، يبغض الفظ الغليظ القاسي الجعظري الجواظ، رفيق يحب الرفق، حليم يحب الحلم، بَرٌّ يحب البِر وأهله، عدل يحب العدل، قابل المعاذير يحب من يقبل معاذير عباده[1] فمعرفة العبد بأسماء الله تعالى ومعانيها واتصاف الله تعالى بها يورث في قلبه حب الاتصاف بها **رجاء** الجزاء من جنس العمل بها.

(١) الوابل الصيب (٥٤ - ٥٥).

● له المثل الأعلى

لله سبحانه المثل الأعلى في كل كمال، فهو أولى بكل جميل ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١). فيجازي عبده بقدر توفر هذه الصفات فيه.

فمن عفى عفى عنه، ومن غفر غفر له، ومن سامح سامحه، ومن رفق بعباده رفق به، ومن رحم خلقه رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن صفح عنهم صفح عنه... فمن عامل خلقه بصفةٍ عاملَه الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده على ما يكون العبد لخلقه.

ولهذا جاء في الحديث: «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله تعالى عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله تعالى عليه في الدنيا والآخرة»(٢)، و«من أقال مسلما أقال الله

(١) الروم (٢٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

عثرته»[1]، و[2] «من أنظر معسراً أو وضع له أظله الله تعالى تحت ظل عرشه»[3].

«ولا تنس حال الذي قبضت روحه الملائكة، فقيل له[4]: هل عملت خيراً، هل عملت حسنة؟ قال: ما أعلمه. قيل: تَذَكَّر. قال: كنت أبايع الناس فكنت أنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر... فقال الله: نحن أحق بذلك منك. وتجاوز الله عنه»[5].

معرفة صفات الله تعالى وأنه ما من كمال محض اتصف به العبد إلا والله تعالى أولى به وأولى في معاملته لعبده به على أكمل وجه هذا **يحفز** العبد للفوز بمعاملة الله تعالى له بمقتضى الكمال الإلهي ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[6] حينئذ يرقيه مرتبة أخرى لفعل الطاعات؛ هذا من فوائد الإيمان بأن لله المثل الأعلى.

(١) رواه أبو داود (٣٤٦٠) وصححه ابن حبان (٥٠٣٠) والحاكم (٢/٤٥) والألباني في الترغيب.
(٢) رواه الترمذي (١٣٠٦) وصححه الألباني.
(٣) الوابل الصيب (٥٤ - ٥٥).
(٤) روى نحوه البخاري (٣٤٥١) ومسلم (١٥٦٠).
(٥) مفتاح دار السعادة (٢ / ٢٧٥).
(٦) النحل (٦٠).

● صفة العَجَب

العَجَب: هو تعظيم الشيء لندرته بين الخلق.

آثر رجلٌ ضيفه على نفسه وعلى زوجته وأولاده فقدم له الطعام بينما نام المضيف طاوياً هو وأهله فقال رسول الله ﷺ: «قد عجب الله ﷻ من صنيعكما بضيفكما الليلة»(١).

وقال النبي ﷺ: «عجب ربنا من رجلين، رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحبه إلى صلاته، فيقول ربنا: أيا ملائكتي؛ انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطائه، من بين حبه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي»(٢).

عندما يستحضر العبد تعظيم الله تعالى لمن آثر ضيفه على نفسه وأهله وتعظيمه للمتهجد لندرتهم بين الناس، ويستحضر مباهاة الله به الملائكة ينشط حينئذ للإيثار والتهجد، ويهون عليه الجوع والنوم والخلود إلى الفراش. هذا من فوائد الإيمان بصفة العَجَب لله تعالى.

(١) رواه البخاري (٤٨٨٩) ومسلم (٢٠٥٤) واللفظ له.

(٢) رواه أحمد (٤١٦/١).

- **استطابة الرائحة**

قال النبي ﷺ: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[1]. فالمحب يحب كل شيء في محبوبه، بل ويحب لونه كما قال أحدهم في امرأة سوداء اسمها تكتم:

أحب النساء السود من أجل تكتم ... ومن حبها أحببت من كان أسوداً

فجئني بمثل المسك أطيب نكهة ... وجئني بمثل الليل أطيب مرقداً

فالمسك والليل كل منهما لونه أسود.

بل ويحب طول محبوبه وشعره وحركته وهيئته في الجلوس والطعام والقيام والمشي، ويحب رائحة المحبوب الطبيعية التي لم تخالطها الروائح الخارجية أو الصناعية، لا رائحة النتن. فيجد رائحة عرق المحبوب تعبق بالطيب وهي رائحة تميز محبوبه عن جميع الخلق، كما يتميز كل إنسان ببنانه فكذا برائحته الخاصة. كما قالت إحداهن في زوجها:

بنفسي وأهلي من أرى كل ليلة ... ضجيعي وريّاه من المسك أطيبا

عندما يصوم العبد لوجه الله تعالى فإن لفمه رائحة خاصة به - ليست رائحة النتن، هذه الرائحة «أطيب عند الله تعالى من ريح

(١) رواه البخاري (١٩٠٤).

المسك»[1]. مما تجعل العبد شغوفاً بالصوم لما يفوز به من جميل الرائحة ويظفر بعظيم المحبة والمنزلة عند الله تعالى، هذا بعض آثار الإيمان باستطابة الرائحة لله تعالى.

(١) رواه البخاري (١٨٩٤).

٥- علو الهمة

التعرف على صفات الله تعالى يقوده إلى علو همته لفعل الطاعات فيشتد سيره إلى الله، ولا يضيع الأوقات، وتهون عليه المجاهدات الشاقة.

● اشتداد السير إلى الله تعالى

«يشتد سير العبد إلى الله تعالى كلما زادت ملاحظته لتوحيده وأسمائه وصفاته. ولهذا كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق اجتهاداً وقياماً بالأعمال ومحافظة عليها إلى أن توفاه الله، وهو أعظم ما كان اجتهاداً وقياماً بوظائف العبودية»[١].

«فالموحد يشاهد بإيمانه ويقينه ذاتاً جامعة للأسماء الحسنى والصفات العلى، لها كل صفة كمال، وكل اسم حسن. وذلك يجذبه إلى نفس اجتماع همه على الله وعلى القيام بفرائضه. والطرق بمجموعها لا تخرج عن هذين السببين، فالأمر كله دائر على جمع الهمة على الله، واستفراغ الوسع بغاية النصيحة في التقرب إليه بالنوافل بعد تكميل الفرائض»[٢].

(١) المدارج (٣ / ١٢٢).

(٢) المدارج (٣ / ٢٥٤).

«إنّ شاهِد نور جلال الذات في قلب العبد وكذلك شاهِد نور العظمة في القلب إنما هو نور التعظيم والإجلال، لا نور نفس المعظم ذي الجلال والإكرام، وليس مع القوم إلا الشواهد والأمثلة العلمية والرقائق التي هي ثمرة قرب القلب من الربِّ وأنسه به، واستغراقه في محبته وذكره، واستيلاء سلطان معرفته عليه، والرب تبارك وتعالى وراء ذلك كله، منزه مقدس عن اطلاع البشر على ذاته أو أنوار ذاته أو صفاته، فإن نور الذات لا تقوم له السموات والأرض، فإنه لو ظهر لها لتدكدكت، ولأصابها ما أصاب الجبل، وإنما هي الشواهد التي تقوم بقلب العبد كما يقوم شاهد من الآخرة والجنة والنار وما أعد الله لأهلهما.

فإذا انضم إليها شاهد النظر إلى وجه الرب جل جلاه، وسماع كلامه منه بلا واسطة كما قال النبي ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم. ثم قرأ[1] قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾[2]. ثم يتوارى عنهم، وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم.

(١) رواه ابن ماجه (١٨٤) وضعفه الألباني.

(٢) يس (٥٨).

فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله، فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابها، فلا يلتفت في طريقه يميناً ولا شمالاً. هذا وفوق ذلك شاهدٌ آخر تضمحل فيه هذه الشواهد، ويغيب به العبد عنها كلها، وهو شاهد جلال الرب وجماله وكماله، وعزه وسلطانه، وقيوميته وعلوه فوق عرشه منفرداً بتدبير مملكته.

«فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهِد، اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة من غير أن تعدم، بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد وتندرج فيه الشواهد كلها. ومَن هذا شاهده فله سلوك وسير خاص ليس لغيره ممن هو عن هذا في غفلة أو معرفة مجملة. فصاحب هذا الشاهد سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه، وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن، هو في وادٍ والناس في وادٍ»[(١)].

قال العباس رضي الله عنه: «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمته أنا وأبو سفيان بن الحارث فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار (يمضي قدماً) وأنا آخذ بلجامها أَكُفُّها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركابها»[(٢)]

(١) المدارج (٢٥٣/٣).

(٢) رواه مسلم (١٧٧٥).

ورسول الله ﷺ يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[(١)]. ثم نزل عن البغلة واستقبل وجوه الكفار. لذا قال البراء: «كنا والله إذا احمر البأس نتقي برسول الله ﷺ، وإن الشجاع مِنّا للذي يحاذي به»[(٢)].

● **عدم إضاعة الوقت**

عند استحضار العبد شواهد الأسماء والصفات ثم اشتداد سيره إلى الله تعالى فإنه لن يضيع لحظة من وقته في غير الطاعة. فإذا ما عرف العبد أن «ربح هذه التجارة سكنى الفردوس والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم. فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها.

فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا مثيل لها ولا حظّ يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسران عظيم لا

(١) رواه البخاري (٢٨٦٤) ومسلم (١٧٧٦).

(٢) رواه مسلم (١٧٧٦).

يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً[1].

عندما التقت صفوف المسلمين في غزوة بدر بصفوف الكفار وبدأ القتال قال النبي ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض.

قال عمير بن الحمام رضي الله عنه: بخٍ بخٍ.

قال ﷺ: وما يحملك على قولك: بخٍ بخٍ؟

قال عمير رضي الله عنه: رجاءَةَ أن أكون من أهلها.

قال ﷺ: فإنك من أهلها.

فأخرج عمير رضي الله عنه تميرات من قَرَنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل»[2]. فلم يُضيع ثوانٍ من عمره في هذه الدنيا، بل أراد أن يعيشها في ظل القرب والزُلفى من الله تعالى، بل في أفضل نعيم في الجنة وهو النظر إلى وجه الله تعالى.

وكذا عبد الله بن رواحة رضي الله عنه **في مؤتة؛** عندما التقى جيش المسلمين القليل وعدده ثلاثة آلاف مجاهد بجيش الروم وعدده مائة

(١) إغاثة اللهفان (١ / ١٣٣ - ١٣٤).

(٢) رواه مسلم (١٩٠١).

ألف مقاتل وبدأ القتال قتل زيد بن حارثة، فأخذ الراية جعفر فقتل، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فقدِّم له عرق لحم فنهس منه نهسة فسمع حطمة القتال فقال لنفسه: أنت في الدنيا؟ ثم ألقاه [كأنه رآه مضيعة لوقته] فقاتل حتى قتل(١) فاستشهد رضي الله عنه.

وهذا حنظلة: عندما كان في ليلة عرسه نائماً مع أهله سمع نداء الجهاد فترك أهله واستجاب لنداء الجهاد، ولم يغتسل خشية ضياع الوقت، فقاتل فاستشهد وهو جنب، فغسلته الملائكة(٢).

- **تهون عليه المجاهدات الشاقة**

النظر بعين شواهد الأسماء والصفات يوقظ قلب العبد فيستهين بالمشقة الناجمة عن المجاهدات. «ومعنى ذلك أن السالك في مبدأ أمره له شِرَّةٌ وفي طلبه حِدَّةٌ تحمله على أنواع المجاهدات، وترميه عليها لشدة طلبه، ففتوره نائم واجتهاده يقظان. فإذا وصل إلى هذه الدرجة استهان بالمجاهدات الشاقة في جنب ما حصل له من مقام الجمع على الله واستراح من كدها، فإن ساعة من ساعات الجمع على الله أنفع وأجدى عليه من القيام بكثير من المجاهدات البدنية التي لم يفرضها الله عليه. فإذا جمع همه وقلبه كله على الله وزال كل مفرق ومشتت

(١) رواه ابن اسحاق في السيرة [ابن هشام (٣٧٩/٢) بسند حسن].

(٢) رواه الحاكم (٢٠٤/٣-٢٠٥)، وصححه ابن حبان (٧٠٢٥) والحاكم.

كانت هذه هي ساعات عمره في الحقيقة، فتعوض بها عما كان يقاسيه من كد المجاهدات وتعبها[1].

لذا ترك النبي ﷺ حِبه أم المؤمنين وقام يتعبد لله تعالى وهي تطلبه قائلاً: «ذريني أتعبد لربي»[2]، فقام ﷺ حتى تفطرت قدماه، فلما سُئل كيف يفعل هذا بنفسه وقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً؟»[3].

وكذا صدّيقه وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه في قصة الهجرة حين خرجوا من غار ثور متجهين إلى المدينة قال: ارتحلنا من مكة فأحيينا -أو سرينا- ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظلٍ فآوي إليه فإذا صخرة أتيتها، فنظرت بقية ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله. فاضطجع النبي ﷺ، ثم انطلقت أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد

(١) المدارج (٣/ ١١٣).

(٢) رواه عبد بن حميد وابن مردوية من طريق أبي جناب الكلبي عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها (تفسير ابن كثير، سورة آل عمران، آية ١٩٤). وفيه أبو جناب، وتابعه عبدالملك بن أبي سليمان عند أبي الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (٢٠٠ - ٢٠١)، وصححه ابن حبان (٦٢٠)، والألباني (٦٨ - السلسلة الصحيحة).

(٣) رواه البخاري (٤٨٣٧).

منها الذي أردنا، فسألته: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش؛ سماه فعرفته. فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: فهل أنت حالب لنا. قال: نعم. فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفّيه، فقال هكذا: ضرب إحدى كفّيه بالأخرى فحلب لي كثبة[1] من لبن. وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة[2] على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يارسول الله. فشرب حتى رضيت، ثم قلت: آن الرحيل يا رسول الله، قال: بلى. فارتحلنا والقوم يطلبوننا[3]. ولم يأخذ أبو بكر لنفسه قسطاً من الراحة؛ هانت عليه المجاهدات الشاقة.

فالتعرف على صفات الله تعالى يفتح لك باباً تطّلع منه على السؤدد التام لله تعالى مما يبعث فيك سعة الرجاء بالله تعالى فتؤوب من الزلل وتعلو همتك فتسارع إلى الطاعات وتهون عليك المجاهدات ولا تضيِّع الأوقات.

* * *

(١) كثبة: أي قليلاً منه.

(٢) إداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء. فتح الباري (١ / ٧٦).

(٣) رواه البخاري (٣٦٥٢).

الأثر الثامن: حسن الخاتمة

من لم يوفق لإثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي ما نفاه عن نفسه وسعى بشتى الوسائل لتأويل صفات الله تعالى تجده حيران في حياته، وخاتمته سيئة -أعاذنا الله من سوء الخاتمة- لسلوكه طرقًا شتى في نفي الصفات فلا يوفق عند مماته. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أكثر فضلاء العارفين بالكلام والفلسفة والتصوف الذين لم يحققوا ما جاء به الرسول ﷺ تجدهم فيه حيارى[1].

هذا ابن رشد الحفيد وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم يقول في كتابه **تهافت التهافت**: ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به؟

أما **الآمدي** وكان من أفضلهم في أهل زمانه، فقد وقف في المسائل الكبار حائراً وقال: أمعنت النظر في الكلام وما استفدت شيئاً إلا ما عليه القوم.

(١) الدرء (١ / ١٥٩).

وقال **الخونجي عند موته**: أموت وما علمت شيئاً مما حصلته سوى أن الممكن يفتقر إلى الواجب. ثم قال: والافتقار وصف عدمي، أموت وما علمت شيئاً.

واجتمع الأصبهاني بالشيخ إبراهيم الجعبري يوماً فقال: بت البارحة أفكر إلى الصباح في دليل على التوحيد سالم عن المعارض فما وجدته.

بينما **الشهرستاني** لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم حيث قال:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقنٍ أو قارعاً سن نادم

أما **الغزالي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات وصحيح الإمام البخاري على صدره.

وكذا **الفخر الرازي** قال في كتابه الذي صنفه في **أقسام اللذات** لمّا ذكر علم التوحيد وأنه أشرف العلوم وأنه ثلاث مقامات: العلم بالذات والصفات والأفعال؛ قال: وعلى كل مقام عقدة:

فعلم الذات عليه عقدة: هل الوجود هو الماهية أو زائد على الماهية؟

وعلم الصفات عليه عقدة: هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟

وعلم الأفعال عليه عقدة: هل الفعل مقارن للذات أو متأخر عنها؟

ثم قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب، أو ذاق من هذا الشراب؟!

ثم أنشد:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذىً ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبالٍ قد علت شرفاتها ... رجال، فزالوا والجبال جبالُ

لقد تأملت الطرق الكلامية والمذاهب الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولاتروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في

الإثبات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[1] ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ﴾[2]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[3] و ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[4] ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾[5]. ثم قال: من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وقال **أبو المعالي الجويني**: يا أصحابنا؛ لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، -أو قال- على عقيدة عجائز نيسابور.

أما **شمس الدين الخسروشاهي** وكان من أجل تلامذة الفخر الرازي فقد قال لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوماً.

قال الخسروشاهي: ما تعتقده؟

(١) طه (٥).

(٢) فاطر (١٠).

(٣) الشورى (١١).

(٤) طه (١١٠).

(٥) مريم (٦٥).

أجاب الفاضل: ما يعتقده المسلمون.

الخسروشاهي: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال.

الفاضل: نعم.

الخسروشاهي: اشكر الله على هذه النعمة، لكني والله لا أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد. وبكى حتى اخضلت لحيته.

وقال **ابن واصل الحموي**: أبيت بالليل وأضطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء وبالعكس حتى يطلع الفجر وما يترجح عندي منها شيء. ثم ترك علم التوحيد وتوجه إلى الهيئة والفلك[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء لما لم يتبين له الهدى في طريقه نكص على عقبيه، فاشتغل في اتباع شهوات الغي في بطنه وفرجه، أو رياسته وماله ونحو ذلك لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبه، وينشرح له صدره. وهؤلاء المعرضون عن

(١) انظر درء التعارض (١ / ١٦٥)، (٣ / ٢٦٢ - ٢٦٤).

الطريقة النبوية السلفية يجتمع فيهم اتباع شهوات الغي ومضلات الفتن، فيكون فيهم من الضلال والغي بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله تعالى به رسوله ﷺ[1].

هكذا انتهى هؤلاء على الحيرة «بينما القرآن ذكر من ذلك ما هو خلاصة ما ذكره الناس، وفيه من بيان توحيد الإلهية مالم يهتد إليه كثير من النظّار ولا العبّاد، بل هو الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه[2].

«فمن أعظم المصائب أن يصاب الإنسان فيما لا سعادة له ولا نجاة له إلا به، يصاب في الطريق الذي يقول أنه به يعرف ربه، ويَرِد عليه فيه إشكال لا ينحل له مع أنه من أكبر رؤوس طوائف أهل الكلام والفلسفة[3]. «ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق، كما قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء فقد أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب.

---

(١) الدرء (١ / ١٦٥ - ١٦٦).
(٢) الدرء (٣ / ٢٦٤).
(٣) الدرء (٣ / ١٨٦ - ١٨٧).

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام. وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه -ما خلا الشرك بالله- خيرٌ له من أن يبتلى بالكلام.

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقر بما أقروا به، ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك التي كان يقطع بها ثم تبين له فسادها أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهاياتهم - إذا سلموا من العذاب - بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله إذا قام من الليل يفتتح الصلاة: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[(١)]. توجه ﷺ إلى ربه بربوبية جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلب بالهداية، وقد وكّل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة: فجبرائيل موكل

(١) رواه مسلم (٧٧٠).

بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها. فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير عظيم في حصول المطلوب؛ والله المستعان»[١].

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢٠٩ - ٢١٠).

ساعة احتضار مثبتي الصفات

أما من تعرف على الله تعالى بأسمائه وصفاته فإنه يحبه ويشتد تعلقه به، فيكرمه الله تعالى عند احتضاره على قدر إثباته للأسماء والصفات ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

● بل الرفيق الأعلى

قال النبي ﷺ في اللحظات الأخيرة وهو يرفع أصبعه إلى السماء بعد أن استاك بالسواك للقاء الله تعالى مشتاقاً إليه: «اللهم الرفيق الأعلى[(١)]، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين»[(٢)].

● لا إله إلا الله

أراد الحاضرون لأبي زرعة لحظة الاحتضار أن يذكروه ويلقنوه الشهادتين، فتذاكروا حديث معاذ رضي الله عنه. فحدثهم أبو زرعة الحديث بإسناده وهو قول النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[(٣)] وخرجت روحه عند قول النبي ﷺ: «لا إله إلا

(١) رواه مسلم (٢٤٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٤٤٤).

(٣) رواه أبو داود (٣١١٦) وصححه الألباني.

الله». فتلفظ بها ثم فاضت روحه إلى بارئها[1].

● يحقق كلام الله تعالى

عاصم أحد القراء السبعة، جعل يلفظ أنفاسه وهو يحقق قراءة كلام الله تعالى ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾[2].

● يتلفظ بصفات الله تعالى ويستغيث بأسمائه

قال عبد الرحمن بن مهدي: لما احتضر سفيان الثوري بكى. قلت له: يا أبا عبد الله ما هذا البكاء؟!

الثوري: يا عبدالرحمن، لشدة ما نزل بي من الموت، الموت والله شديد.

فسمعته فإذا هو يقول: روح المؤمن تخرج رشحاً، فأنا أرجو.

ثم قال: الله أرحم من الوالدة الشفيقة الرفيقة، إنه جواد كريم. كيف لي أن أحب لقاءه وأنا أكره الموت؟

عبدالرحمن: فبكيت حتى كدت أن أختنق، أخفي بكائي عنه.

(١) فتح الباري (٣ / ١٠٩).
(٢) الأنعام (٦٢).

وجعل سفيان يقول: أوه...، أوه من الموت، مرحباً برسول ربي. ثم أغمي عليه، ثم أسكت، ثم أغمي عليه فظننت أنه قد قضى ثم أفاق.

الثوري: يا عبدالرحمن، اذهب إلى حمّاد بن سلمة (راوي أحاديث الصفات) فادعه لي، فإني أحب أن يحضرني.

ثم قال: لقِّني لا إله إلا الله. فجعلت ألقِّنه.

- **حماد بن سلمة؛ حامل راية إثبات الصفات**

عاد حماد بن سلمة سفيان الثوري عند وفاته.

الثوري: أترى الله يغفر لمثلي؟

حماد: والله لو خيّرت بين محاسبة الله إيايَّ وبين محاسبة أَبَوَيّ لاخترت محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أَبَوَيّ.

فمات حماد بن سلمة وهو في الصلاة في المسجد.

- **هارون الرشيد**

كان هارون الرشيد ينصر السنة وحديث النبي ﷺ، فقال لما احتضر: اللهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة، يا من لا

يموت ارحم من يموت.

• ثابت البناني؛ راوي أحاديث الصفات

قال ابنه محمد: ذهبت أُلَقِّنُ أبي الشهادتين وهو في الموت.

فقلت: يا أبة؛ قل لا إله إلا الله.

ثابت: يا بني؛ خلِّ عني فإني في وردي السادس أو السابع (من القرآن).

• إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل

ساعة احتضار الإمام أحمد بن حنبل كان الناس يدخلون عليه أفواجاً يسلمون عليه ويرد عليهم. فدخل عليه شيخ فقال: اذكر وقوفك بين يدي الله، فشهق أبو عبدالله وسالت الدموع على خديه.

وجعلنا نتلقفه فنقول: لا إله إلا الله، ونردد ذلك عليه وهو يهلِّل، وتوجَّه إلى القبلة واستقبلها بقدميه.

فدخل عليه مجاهد بن موسى وقال: يا أبا عبدالله قد جاءتك البشرى؛ هذا الخلق يشهدون لك.

فجعل الإمام أحمد يبكي.

قال ابنه صالح: ثم جعل أبي يحرك لسانه إلى أن توفي، رحمه الله رحمة واسعة.

فهذه بعض ثمرات الإيمان بأسماء الله وصفاته. فمعرفتها غاية المعارف، وهي أصل الدين، وأساس الهداية، وأفضل ما اكتسبته القلوب، وحصلته النفوس، وأدركته العقول.

والحمد لله رب العالمين

فهرس المحتويات

تم الإخراج بشركة غراس للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
- هاتف ٢٤٨١٩٠٣٧ - فاكس ٢٤٨٣٨٤٩٥ بدالة المطبوعات 24810010 - الكويت